مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الآليات الحجاجية في "مجمع الأحياء"

للعقاد: دراسة جدلية- تداولية

د. نورهان عبدالرءوف أحمد محمد

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الألسن – جامعة عين شمس

DOI: 10.21608/qarts.2022.140693.1445

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٧) أكتوبر ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الآليات الحجاجية في "مجمع الأحياء" للعقاد:
دراسة جدلية- تداولية

الملخص:

هذا البحث هو محاولة لاستكشاف الآليات الحجاجية التي يوظفها عباس محمود العقاد في كتابه "مجمع الأحياء"، ويُنطِق بها شخصياته المتناوبة خلال هذا "المجمع" على الحديث، وهي شخصيات اعتبارية يمثل كلٌ منها موقفًا فلسفيًا خاصًا من الحياة؛ ليعبر العقاد بواسطتها عن تصارع الأهواء والقيم والمفاهيم المتناقضة حول الحياة ومبادئها، ودفاع أصحاب كل مبدأ عن معتقدهم. وهو في هذا يحاجُّ على ألسنتها عن المبدأ ونقيضه في كتاب واحد، فيعبر في الواقع عن صراع داخلي خاص في ذهنه.

يستعين البحث بالأدوات الإجرائية التي أَرْسَتْها النظرية الجدلية- التداولية، وهي نظرية في دراسة الخطاب الحجاجي أسسها الباحثان في جامعة أمستردام فرانز فان إيمرن وروب غروتندورست في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، وسَعَيَا من خلالها إلى دراسة الممارسات الحجاجية في سياقها الاستعمالي، فمزجا بين البعد الوصفي التداولي والبعد المعياري المنطقي. تدرس النظرية الأفعال الكلامية الإنجازية البسيطة والمركبة في ارتباطها بالوظيفة الإقناعية، وتدرس المخططات الحجاجية والمغالطات في ضوء مقاييس الالتزام بقواعد المناقشة أو انتهاكها.

يبدأ البحث بشرح هذه الأدوات في قسمه النظري، قبل الشروع في تطبيقها على نص الكتاب في القسم التطبيقي.

الكلمات المفتاحية: عباس محمود العقاد، مجمع الأحياء، التداولية، الحجاج، النظرية الجدلية- التداولية.

مقدمة:

في "مجمع الأحياء" تقف الأهواء والمبادئ بنفسها منافِحَةً عن نفسها، ويقف الأحياء يحاجّون الكون ويحاجّهم، يغالطونه ويغالطهم... يسعى لإثبات حقِّ رأيه مَن لا يؤمن بالحق، ويحاول بسط هيمنته على غيره مَن يرفع العدل شعارًا. وينتصر صوت الكاتب/العقاد لعاقبةٍ تحقق له هو اطمئنانًا – على حد تعبيره – قد لا تحققه لغيره.

هذا البحث هو محاولة لاستكشاف الآليات الحجاجية التي يعمد إليها كاتبٌ واحدٌ في الدفاع عن الرأي ونقيضه، ويعبر بها عن صراعٍ محتدمٍ في عقله يُنطِق به شخصيات كتابه.

وهو يستعين – أي البحث – بأدوات إجرائية أَرْسَتْها إحدى نظريات الحجاج، لم تَنَلْ – على قِدَمِها النسبي – قدرًا واسعًا من الدرس في العالم العربي، هي النظرية الجدلية– التداولية. يبدأ البحث بشرح هذه الأدوات في قسمه النظري، قبل الشروع في تطبيقها على نص الكتاب في القسم التطبيقي.

القسم النظري:

أ) كتاب "مجمع الأحياء":

هو من أوائل كتب عباس محمود العقاد، وهناك من يعدُّه أو كتاب منشور له[١]، تاريخ طبعته الأولى غير مؤكد، لكن المؤكد أنه كتبه ونشره للمرة الأولى خلال الحرب العالمية الأولى[٢].

يدور الكتاب حول كائن ما – لم ينص العقاد حتى على أنه من البشر – يجد نفسه فجأة في غاب من غابات إفريقيا، يحضر مؤتمرًا دعت إليه امرأة عمياء يتضح بعد قليل أنها "الحياة" نفسها، لتدعو أبناءها "الأحياء" من خلاله إلى الوئام ونبذ ما بينهم

خلاف وبغضاء. وخلال هذا المؤتمر أو "المجمع" يتناوب على الحديث عدد من الكيانات الرمزية، يمثل كلٌ منها موقفًا فلسفيًا خاصًا من الحياة، هذه الكيانات هي على الترتيب: الحياة، واليمامة، والثعلب، والقرد، والأسد، والمرأة، والإنسان، والطبيعة، إلى جانب بعض التدخلات القصيرة من كيانات أخرى كالذئب والنمر... . والكتاب ليس سرديًا، لكنه خطابي فلسفي، ما السرد إلا إطار ضئيل لوقائعه.

ب) النظرية الجدلية- التداولية:

النظرية الجدلية- التداولية في الحجاج Pragma-Dialectical Argumentation Theory هي نظرية في تحليل الخطاب الحجاجي، وضع أسسها الباحثان في جامعة أمستردام فرانز فان إيمرن Frans H. van Eemeren وروب غروتندورست Rob Grootendorst في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، وانطلقا فيها من مبدأ أن "أية مقاربة منصفة للممارسات الحجاجية لا بد من أن تضعها في سياقها الاستعمالي، في ضوء أنها تهدف إلى تحقيق آثار اتصالية وتفاعلية معينة، بعيدًا عن المقاربات المنطقية الضيقة"[٣]؛ لذلك عمل الباحثان على مقاربة تدمج كلًا من البعدين التداولي الوصفي والجدلي المعياري. يتحقق البعد التداولي من خلال التمييز بين الأدوار المختلفة التي تؤديها أطراف الخطاب والأفعال الكلامية التي يتبادلانها، أما البعد الجدلي فيتحقق بدراسة اتساق تلك الأفعال الكلامية مع قواعد المعقولية التي وضعها الباحثان لتحقيق ما سَمَّياه "النموذج المثالي للمناقشة النقدية" Ideal model of critical discussion [٤].

وفيما يلي شرح لأهم أدوات التحليل الجدلي- التداولي:

- **نموذج المناقشة النقدية:**

يعتمد هذا النموذج على التمييز بين أربع مراحل في سيرورة حل الخلاف في الرأي بين المشاركين في تبادل حجاجي، هي: مرحلة المواجهة وتحديد الخلاف، ومرحلة الافتتاح والاتفاق على الشروط، ومرحلة الحجاج واستخدام المبادئ المنطقية، ومرحلة الاختتام واستيفاء شروط إغلاق النقاش. لكن النقاش قد لا يمر بهذه المراحل جميعًا بشكل صريح، وقد لا تتم بالترتيب المحدَّد؛ فالخطاب الحجاجي الواقعي يتضمن في العادة مناقشات متعددة ومتشابكة(٥).

فهذا النموذج المثالي لا يُعَدُّ تمثيلًا صحيحًا تمامًا للواقع، لكنه يوفر مجموعة من الأدوات لفهمه وتحديد مدى توافق الممارسة مع غرض المناقشة الحجاجية في الوصول إلى حل للنزاع، وأي انتهاك لإحدى قواعده يشكِّل تهديدًا محتملًا لنجاح المناقشة، هذه الانتهاكات توازي عيوب الحجاج التي تُعرَف تقليديًا في المنطق بـ"المغالطات"؛ فمصطلح "المغالطات" في المنظور الجدلي– التداولي يُقصَد به الأفعال الكلامية التي تعيق بأي شكل من الأشكال حل النزاع، ويرتبط منهجيًا بقواعد المناقشة النقدية(٦).

هذه القواعد كما يشرحها فان إيمرن وغروتندورست(٧) هي:

١. القاعدة الأولى: الحرية وعدم المنع:

يجب على الأطراف ألا يمنع أحدها الآخر من طرح وجهة نظر أو التشكيك في أخرى.

تُكسَر هذه القاعدة إذا حاول أحد الأطراف فرض قيود معينة على وجهات النظر التي تطرح أو تُساءَل، أو حاول تقييد حق طرف آخر في الطرح أو التشكيك في أي وجهة نظر يريدها.

من أمثلة قيود النوع الأول: أن تكون وجهات نظر معينة محظورة في النقاش، أو على العكس أن تكون وجهات نظر معينة مقدسة ومن ثم محصنة ضد النقد.

ومن أمثلة قيود النوع الثاني: محاولات إلغاء الخصم بوصفه شريكًا جادًا في المناقشة، من خلال الضغط عليه، أو التشكيك في خبرته أو حياده أو نزاهته أو مصداقيته.

تُطبَق هذه القاعدة في مرحلة المواجهة.

٢. القاعدة الثانية: عبء الإثبات:

مَن يطرح وجهة نظر ملتزم بالدفاع عنها إذا طلب منه هذا، وهو ما يُعرَف بعبء الإثبات.

الطريقة الأولى للتهرب من عبء الإثبات تتمثل في تقديم وجهة نظر على أنها أمر بدهي، والطريقة الثانية تتمثل في إعطاء ضمان شخصي لصحة وجهة النظر، أما الطريقة الثالثة فتتمثل في صياغتها بطريقة غير قابلة للتكذيب عبر استبعاد المحددات الكمية وإضافة وسوم كيفية.

وقد يعمد المُحاج إلى تحويل عبء الإثبات بمحاولة حمل الخصم على البدء في إثبات خطأ وجهة النظر التي يسائلها، بدلًا من أن يثبت هو صحتها. وتطبق هذه القاعدة الثانية في المرحلة الافتتاحية.

٣. القاعدة الثالثة: وجهة النظر:

من أجل حل النزاع لا بد أن تكون وجهة النظر التي يهاجمها الخصم مطابقة لوجهة النظر التي قدمها المحاج حقًا.

تُكسَر هذه القاعدة إذا نسبت وجهة نظر وهمية إلى الخصم، أو إذا شوِّهَت وجهة نظره، في الحالتين تُرتكَب المغالطة المعروفة باسم "رجل القش"، وقد يصل تشويه وجهة

نظر شخص ما إلى تحريف كلماته بتبسيطها أو تهويلها. تطبق القاعدة الثالثة في جميع مراحل المناقشة النقدية.

٤. القاعدة الرابعة: الصلة:

من أجل حل النزاع لابد أن يوظف المُحاج حجاجًا ذا صلة بوجهة النظر المتنازع عليها.

تكسر هذه القاعدة إذا دوفع عن وجهة نظر غير ذات صلة بوجهة النظر الأصلية، أو بوسائل أخرى غير الحجاج.

في الحالة الأولى نحن أمام حجاج غير ذي صلة، وفي الحالة الثانية نكون أمام اللاحجاج، أي استهداف نيل استحسان الجمهور بوسيلة زائفة، كالحيل البلاغية التي تستغل عواطف الجمهور أو تحيزاته (الحجاج العاطفي أو "الباتوس")، أو السمات الشخصية للمحاج، أو خبرته، أو خصائص أخرى له (حجاج وجه الذات أو "الإيتوس"). تطبق القاعدة الرابعة في مرحلة الحجاج.

٥. القاعدة الخامسة: المقدمات غير المصرح بها:

يمكن أن يؤاخذ الشخص بالمقدمات التي يتركها ضمنية.

إلى جانب المقدمات الصريحة، يحتوي الخطاب عمومًا على مقدمات غير مصرح بها وهي تعد جزءًا حقيقيًا من الحجاج المقدَّم لدعم وجهة نظر ما.

تُكسَر القاعدة الخامسة إذا كانت إعادة بناء مقدمة غير مصرح بها مبالَغًا فيها، أو إذا رُفِض الالتزام بمقدمة غير مصرح بها على الرغم من توضيحها بشكل صحيح.

يُعَدّ تضخيم المقدمة غير المصرح بها حالة خاصة من مغالطة رجل القش، وإنكار مقدمة صحيحة غير مصرح بها حالة خاصة من التهرب من عبء الإثبات. تطبق القاعدة الخامسة في مرحلة الحجاج.

٦. القاعدة السادسة: نقطة الانطلاق:

تعد وجهة نظر ما قد دوفع عنها بإفحام إذا دوفع عنها بحجج تنتمي إلى أرضية مشتركة بين المتحاجين.

من أجل حل النزاع يلزم وجود نقطة انطلاق مشتركة من الحقائق والقيم.... إلخ. يمكن للمُحاج الاستفادة من هذه المقدمات المشتركة عبر الإشارة إلى أن القضية التي شكك فيها الخصم ينبغي ألا تكون موضع مساءلة بسبب كونها نقطة انطلاق مشتركة.

تُكسَر القاعدة السادسة إذا قُدِّمَت قضية ما كنقطة انطلاق مشتركة في حين إنها ليست كذلك في الواقع؛ من أجل التهرب من عبء إثباتها، أو إذا شُكِّك في قضية على الرغم من وضوح انتمائها إلى نقطة الانطلاق المشتركة؛ بغرض سلب الطرف الآخر إمكانية الدفاع عن وجهة نظره. وتطبَّق هذه القاعدة في مرحلة الحجاج.

٧. القاعدة السابعة: المخطط الحجاجي:

تُعَدُّ وجهة النظر قد دوفع عنها بإفحام إذا طُبِّق في الدفاع عنها مخطط حجاجي مقبول في العموم بشكل صحيح، من بين المخططات الأساسية الثلاثة: حجاج الأعراض، والحجاج المقارن، والحجاج السببي – وسيلي تفصيلهما –.

تُكسَر القاعدة السابعة إذا اختير مخطط غير ملائم للقضية المقصودة (كاللجوء إلى التوسل بالمرجعية أو التوسل بالأكثرية)، أو إذا طبق مخطط مقبول بطريقة غير

ملائمة (كمغالطات التعميم المتسرع، والقياس المخطئ، والسبب الزائف). تطبق القاعدة السابعة على مرحلة الحجاج.

٨. القاعدة الثامنة: الصدق:

ينبغي أن تكون الحجج المستخدمة في نص خطابي صادقة أو قابلة للتحقق من صدقها عبر توضيح واحدة أو أكثر من المقدمات غير المصرح بها فيما يُعرَف بـ"إجراء الاستدلال"، ويجب أن تجعل المقدمات المستعادة الحجة الأصلية صادقة.

تُكسَر القاعدة الثامنة إذا كشف إجراء الاستدلال عن أن واحدة أو أكثر من الحجج غير صادقة. وتطبيق هذه القاعدة الثامنة في مرحلة الحجاج.

٩. القاعدة التاسعة: الإغلاق:

يجب أن يؤدي الدفاع الفاشل إلى سحب المحاج لوجهة نظره ويجب أن يؤدي الدفاع الناجح إلى سحب الخصم شكوكه حول وجهة النظر. وإذا اتفق المحاج والخصم على نتيجة المناقشة يمكن حقًا حل النزاع.

تُكسَر القاعدة التاسعة إذا رفض أحد الأطراف تلبية هذه الشروط، أو إذا بالغ أحد الأطراف في استغلال فشل حجاج الطرف الآخر بإعلان انتصار وجهة نظره بغير إثبات. تطبق القاعدة التاسعة في مرحلة الاختتام.

١٠. القاعدة العاشرة: الاستعمالات اللغوية:

ينبغي الا تكون الصياغات اللغوية مبهمة بشكل مُلغِز ولا غامضة بشكل محير، ويجب تفسيرها بأكبر قدر ممكن من الدقة.

يمكن أن يكون للاستخدام غير الواضح عواقب مباشرة على حل النزاع، ويمكن أن يخلق سوء فهم بين الأطراف، ويؤدي إلى اتفاق زائف أو خلاف زائف، سواء وقع في

مستوى الجملة أو في مستوى النص؛ لذلك يجب على المتحدثين بذل أكبر جهد لتوضيح ما يقولون، وفهم ما يقوله الطرف الآخر.

تُكسَر القاعدة العاشرة إذا حاول أحد الطرفين كسب ميزة على خصمه عن طريق إساءة استخدام وعدم الوضوح والغموض. تطبَّق هذه القاعدة في جميع مراحل المناقشة النقدية.

- **المخططات الحجاجية:**

للحجاج وفقًا للنظرية التداولية الجدلية ثلاثة مخططات أساسية تشمل تحتها كل أنماط الحجج، هذه المخططات هي: حجاج الأعراض، والحجاج المقارن، والحجاج السببي.

حجاج الأعراض symptomatic argumentation يعتمد على مبدأ تداولي مفاده أن شيئًا ما عَرَض أو سمة لشيء آخر، أو رمز له وعلامة عليه (كأن تقول: "فلان صيني؛ لذلك هو مجتهد"، أي لأن الصينيين عمومًا مجتهدون). ومن أنماطه الفرعية حجة الجنس- النوع، وحجة الجزء- الكل، وحجة التصنيف، والحجاج القائم على المعايير، والحجاج من موقع سلطة(٨).

أما الحجاج المقارن Comparison argumentation فيُستَخدَم فيه مخطط حجاجي يعتمد على المبدأ التداولي الخاص بإمكانية مقارنة شيء بشيء آخر، أي أن يكون بينهما وجه شبه. يتضمن الحجاج المقارن علاقة قابلية المقارنة بين العلة المقدَّمة ووجهة النظر المُدافَع عنها (مثال: "ستكون المراقبة بالكاميرات فعَّالة في مترو أمستردام، لأنها كانت فعَّالة في مترو لندن"). ومن الأنماط الفرعية للحجاج المقارن حجة النموذج، والحجة القائمة على قاعدة العدل(٩).

وأما الحجاج السببي فيعتمد مخططه على المبدأ التداولي الخاص بأن شيئًا ما هو سبب أو نتيجة لشيء آخر، أي أن أحدهما وسيلة للآخر أو يؤدي إليه. ويتضمن الحجاج السببي علاقة الوسيلة أو العاقبة بين العلة المُقَدَّمة ووجهة النظر المُدافَع عنها (مثل القول: "فلان تدرب لفترة طويلة؛ لا بد وأنه متعب"، والتدرب لفترة طويلة يؤدي إلى التعب). ومن أنماطه الفرعية الحجاج من السبب إلى النتيجة، والحجاج من النتيجة إلى السبب، والحجاج من الوسيلة إلى الهدف(١٠).

- **الأفعال الإنجازية البسيطة والمركبة:**

يعتمد التحليل الجدلي- التداولي للأفعال الإنجازية على تقسيمها إلى صنفين، الأول هو الأفعال الإنجازية البسيطة التي تقع في مستوى الجملة، والأفعال الإنجازية المركبة التي تقع في مستوى النص.

الفعل الحجاجي بحسب الجدليين- التداوليين فعل إنجازي نصي كلي؛ فالحجاج الصريح الكامل يتكون على الأقل من جملتين تمثلان المقدمة والنتيجة. والتلفظ بجملة مفردةً يُنتِج فعلًا إنجازيًا بسيطًا متمايزًا عن الفعل الحجاجي (كالتصريح، والافتراض، والتأكيد...)، أما الفعل الحجاجي فلا يتم إلا بالربط بين تلك الجمل المفردة وجملة أخرى أساسية هي الجملة التي تعبر عن الرأي الذي يحيل إليه الحجاج. والملفوظات في الفعل الحجاجي لها قوة إنجازية مشتركة تعمل بمثابة تبرير للرأي أو دحض له(١١).

أما الأفعال الكلامية الإنجازية البسيطة فتحدد النظرية الجدلية- التداولية وظائفها التي تقع في مستوى الجملة في مختلف مراحل المناقشة النقدية(١٢).

الإخباريات Assertives يمكن لها التعبير عن وجهات النظر في مرحلة المواجهة. وفي مرحلة الحجاج يمكن لها تبليغ الحجاج عند الدفاع عن وجهة نظر. ويمكن لها تأسيس نتيجة أو تأييد وجهة نظر والتراجع عن أخرى في مرحلة الاختتام.

دور التوجيهيات Directives في مرحلة الافتتاح هو إخطار الطرف الذي يتبنى وجهة نظر بأن عليه التصدي للدفاع عنها. وفي مرحلة الحجاج مطالبة أحد الأطراف بتوفير استدلال يدعم وجهة نظره، وأيضًا مطالبة أحد الأطراف بتوضيح خطوة قام بها أي بأداء فعل إعلاني شارح لاستعمالاته اللغوية usage declarative. ولا يمكن استعمال أفعال توجيهية للمطالبة بأداء فعل غير حجاجي، كالدعوة إلى الشجار مثلًا.

كذلك تؤدي الالتزاميات Commissives أدوارًا متعددة في المناقشة النقدية؛ ففي مرحلة المواجهة يمكن لها أن تعبر عن قبول وجهة نظر بشكل مبدئي أو عدم قبولها. وفي مرحلة الافتتاح قد تعبر عن قبول التصدي للدفاع عن وجهة النظر، واتخاذ قرار بدء النقاش، والموافقة على قوانين المناقشة وتوزيع الأدوار. في مرحلة الحجاج تستخدم الالتزاميات لقبول الفعل الحجاجي أو عدم قبوله. وفي مرحلة الاختتام تعبر الالتزاميات عن قبول وجهة النظر المدافَع عنها أو عدم قبولها.

أما التعبيريات Expressives فليس لها دور مباشر في المناقشة النقدية أو في مسار الحل، لكنها قد تؤثر فيه بشكل غير مباشر، كما لو تحسر طرف ما على صعوبة الحل، فشكل هذا تهديدًا لنجاح النقاش.

النوع الخامس والأخير من الأفعال الكلامية الإنجازية في الدراسات التداولية هو الإعلانيات Declaratives، وهي مقيدة بسلطة المتحدث أو قيود السياق المؤسسي؛ لذلك فإن المهم منها في المناقشة النقدية هو نمط الفعل الإعلاني الشارح للاستعمالات اللغوية الذي يوظَّف لتوضيح الأفعال الكلامية الأخرى، كفعل التعريف أو الشرح أو التخصيص أو الإسهاب. هذا النمط يمكن أن يستخدَم في مرحلة المواجهة للكشف عن نزاع زائف، ويمكن أن يُسهم في مرحلة المواجهة في إزالة أي شكل يتعلق بقواعد المناقشة، وفي مرحلة الحجاج يساعد في تجنب القبول المبكر أو الرفض المبكر.

القسم التطبيقي: مراحل المناقشة النقدية في "مجمع الأحياء":

أولًا: مرحلة المواجهة Confrontation Stage:

- **ملامح المرحلة ومقاصدها في "مجمع الأحياء":**

مرحلة المواجهة – بحسب النظرية الجدلية– التداولية في الحجاج – هي المرحلة التي يتضح فيها أن وجهة نظر ما غير مقبولة وتلاقي شكًا أو تكذيبًا أو إنكارًا، بشكل فعلي أو على سبيل التوقع، ومن ثم يَنتُج خلافٌ في الآراء، أو يُتوقَع أن يَنتُج. وقد يبقى هذا الخلاف ضمنيًا بلا تصريح. وإذا لم تحدث مواجهة، فلا داعي لإجراء مناقشة نقدية لأنه لا يوجد حينئذٍ خلاف يتطلب الحل(١٣).

خطاب الحياة:

تمثلت مرحلة المواجهة الكلية للنقاش في أجزاء من الخطاب الأول في مؤتمر مجمع الأحياء الذي وضعه العقاد على لسان الحياة نفسها، وهو خطاب تتوزع أجزاؤه على مرحلتَي المواجهة والافتتاح. وفيه توضح الحياة حقيقة وجود خلاف وتضارب في وجهات النظر بين الأحياء حول مفهوم "الحياة" نفسه الذي يطوعه كلٌ لمصلحته الخاصة. تقول:

- "أتدرون يا بَنِي لِمَ دعوتكم؟ دعوتكم لَمَّا شجرت بينكم شواجر البغضاء، وتقطَّعتْ بكم أسبابُ الرحم، فعدا بعضكم على بعض، وأصبح الحي منكم ينظر إلى سائر الأحياء، كأنه الحي وحده وهي أحجار صمَّاء، لا شعور لها، ولا رغبة في البقاء عندها، أو هو لا يعرف فيها الحياة إلا ليراها أصلح لخدمته، وأهيب من المادة الجامدة لسطوته".
- "غرَّكم تباين خلقكم، وتعدُّد سماتكم وسحنكم، فخلتم أنكم شتيت مفلول، ونثير مبدَّد، لا تفيئون إلى أصل، ولا تلتقون عند غاية. غاية، فهل نسيتم أن كلمة الأحياء تشملكم؟ وأن الموت عدو لكم؟ وأنتم بين جنوده وعناصره في هذا الكون وحدكم؟".

- "إنكم تفهمونني جميعًا وتفقهون ما أوحي إليكم به الآن، لكنكم لا يفهم بعضكم بعضًا، ولا يعي أحدكم سريرة صاحبه إلا رجمًا بالغيب وأخذًا بالظن".

كما يتضمن خطاب الحياة نصًا واضحًا على غرض المناقشة في البحث عن حل للخلاف وترك النزاع:

- "فاليوم أجمعكم في هذه الغاب ليمشي بعضكم إلى بعض بالسلم فتعتصموا به، وتتناصحوا فيما باعد بينكم وأولع بعضكم ببعض فتقلعوا عنه".

إن القضية التي يتناولها العقاد شديدة العموم حتى لا تكاد قضية أخرى تضاهيها في عمومها؛ فالحياة ليست فقط القيمة التي يتمسك بها كل كائن وينتهي وجوده بفقدانها، بل إنها المعنى الذي يشمل بداخله جميع جوانب الوجود وقضاياه، فإن لم يكن ثمة اتفاق عليها لن يكون اتفاق على أيٍ من مشمولاتها.

وأما الجانب الخلافي الخاص الذي قصد إليه العقاد تحت هذا الرمز العام دون أن يصرح به في حوارات الكتاب فهو الحرب العالمية الأولى وكأنه عدَّ تلك الحرب تهديدًا لمعنى الحياة بذاته. وقد صرح بتأثر كتابه هذا بالحرب في مقدمة الطبعة الثالثة من الكتاب بقوله: "هذه الرسالة وليدة الحرب العالمية الماضية، شغلني موضوعها يومئذٍ لأنه موضوع الصراع في الحياة الإنسانية بل في الحياة عامة، وأحببت أن أعرف لهذا الصراع معنى يطمئن إليه الضمير، فانتهيت بالرسالة إلى معنى فيه بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان، وهو أن الحق والنواميس الطبيعية يتلاقيان"(١٤).

غير أن مهمةً أساسيةً من مهام مرحلة المواجهة هي تحديد وجهة نظر معينة لتأييدها أو معارضتها قد أُرجئت لكل خطاب من الخطابات التالية؛ حيث يعرض كل مُحاجٍ وجهة نظره في خطابه الخاص ويدافع عنها، ليعارضها من يليه.

جاءت أكثر الأفعال الكلامية البسيطة الموظفة في مرحلة المواجهة ضمن خطاب الحياة من الإخباريات، ووُظِّفَت جميعًا في تقرير الحقائق والوقائع التي تشكل دافعًا لعقد المؤتمر، وليس للتعبير عن وجهات النظر الأساسية كما افترض منظرو الجدل- التداولي. من ذلك: "شجرت بينكم"- "تقطعت"- "عدا بعضكم على بعض"- "غركم"- "فخلتم"- "تفهموننني"- "تفقهون"- "لا يفهم بعضكم بعضًا".

كما برزت مواضع للأفعال التوجيهية على الرغم من أن النظرية لا تعتد بها في مرحلة المواجهة، وكان شكلها الأهم طرح التساؤلات بواسطة الاستفهام وغرضه حث الأحياء على الاستجابة لدعوة المؤتمر وتبادل الآراء بحثًا عن حل، سواء كان هذا بواسطة الاستفهام الحقيقي في الجمل الأولى: "أتدرون...؟"، أو كان عبر استفهام مجازي هو في حقيقته فعل تعبيري غير مباشر يفيد التعجب والاستنكار من النزاع القائم بينهم والحث على مواجهة جنود الموت: "فهل نسيتم...؟".

- **مغالطات مرحلة المواجهة:**

يثبت العقاد للحياة رغبة صادقة في التوصل إلى حل لنزاع الأحياء الذي يهددها، وذلك عبر التزام خطابها التام بالقاعدة الأولى من قواعد المناقشة النقدية، وهي قاعدة الحرية وعدم المنع.

تكفل الشخصية الاعتبارية للحياة حقًا غير مشروط لجميع شهود مجمع الأحياء في الإسهام في المناقشة النقدية، وتوجه خطابها إليهم وتمنحهم كل الوسائل المعينة للتعبير عما "سرائرهم"، تقول:

- " فَليكن لكم ما دمتم في هذا الحشد عِلم الإنسان وبيانه وبصيرته، وَلتشرب أرواحكم فنونه وتواريخه وأديانه؛ تتعاونون بها على التفاهم والإبانة عما في سرائركم".

وهي بهذا تتجنب أي خطوات خطابية قد تؤدي إلى انتهاك القاعدة الأولى وتفسَّر على أنها مغالطات؛ فهي لا تحظر أية وجهة نظر من التداول، ولا تعلن تقديس أية وجهة نظر أو منع انتقادها، ولا تضغط على أيٍ من الأطراف المشاركة بمحاولة استدرار العطف، ولا توجه قدحًا شخصيًا لأيٍ منهم. وهذه هي المغالطات التي تعدها النظرية الجدلية– التداولية خروقًا للقاعدة الأولى المرتبطة بمرحلة المواجهة.

ثانيًا: مرحلة الافتتاح Opening Stage:

- **ملامح المرحلة ومقاصدها:**

في مرحلة الافتتاح يجري تحديد نقاط الانطلاق المشتركة بين أطراف المناقشة، التي سيستند إليها تبادل وجهات النظر (مثل شكل النقاش، والخلفية المعرفية، والقيم... إلخ). وإذا لم يتم هذا الالتزام المتبادَل بصدد نقطة انطلاق مشتركة تخص بعض الإجراءات أو تخص اتفاقًا جوهريًا، فمن المستحيل إجراء المناقشة النقدية؛ إذ لا يمكن توظيف وسائل حجاجية غير مبنية على أرضية مشتركة. وتظهر مرحلة الافتتاح في أجزاء الخطاب التي تبدأ فيها الأطراف في إظهار أدوارها، أي التي يقع فيها اتفاق على توزيع الأدوار بين المُحاج والخصم، وتحديد الالتزامات التي تحكم كل طرف. يُفترَض أن يلتزم المُحاج بالدفاع عن وجهة نظره، في حين يلتزم الخصم بالرد الناقد عليها. وفي العديد من الحالات قد تبقى عناصر مرحلة افتتاح التبادل الحجاجي ضمنية؛ لأنه في العموم قد تُعَدُّ الأرضية المشتركة المطلوبة موجودة بالفعل(١٥).

تتمثل مرحلة الافتتاح أيضًا في أجزاء من خطاب الحياة؛ فقد نصت الحياة في خطابها على الأرضية المشتركة بين جميع الأحياء في الأصل:

- "هذا وأنتم جميعًا أبنائي، أرضعتكم لباني، وسرت في عروقكم دمائي، وميَّزْتُكم عن الجماد، فجعلتكم جندًا لي على أعدائي، يؤلمني الألم في أصغركم وأوضعكم كما

يؤلمني في أضخمكم وأرفعكم، وأعالج من الأوجاع والحسرات لمفارقة الجثة الناقصة الدقيقة ما أعالجه لمفارقة البِنْيَة التامة القويمة".

وعلى الضرر الحاصل من النزاع في نصها مزدوج الوظيفة بين مرحلتَي المواجهة والافتتاح حول الموت:

- "وأنتم بين جنوده وعناصره في هذا الكون وحدكم؟".

وكذلك المنفعة المتحققة من النقاش:

- "ذلك أولى لكم من هذه الشحناء التي شقَّتْ عصاكم، وأشمتت الجماد بكم، وصيَّرت بعضكم يتمنى لو أنه صخرة جامدة أو جثة خامدة، ويحسب الحياة لعنة عليه وعلى الخلق أجمعين".

ثم شرعت الحياة تحدد التزامات المناقشة، فمنحت أبناءها الأحياء جميعًا حق الحجاج والتفاهم والقدرة البشرية على الإبانة، مع شرط احتفاظ كلٍ منهم بطبائعه وأفكاره:

- "فَلْيكن لكم ما دمتم في هذا الحشد عِلْم الإنسان وبيانه وبصيرته، وَلْتشرب أرواحكم فنونه وتواريخه وأديانه؛ تتعاونون بها على التفاهم والإبانة عما في سرائركم، أما طبائعكم فحافظوا عليها جد المحافظة، فإنها دليلكم فيما سينطق به كلٌّ منكم عن رغبته وفكره، والمعالم التي تميز بين أحدكم وغيره، وهي قوام أنفسكم وملاك وجودكم، وليس التجاوز عن هذه المعالم بأسهل عليَّ أو عليكم من التجاوز عن الحياة".

جدير بالملاحظة هنا تعدُّد النصوص التي تؤدي بعض مهام مرحلة المواجهة، وبعض مهام مرحلة الافتتاح في آن واحد.

أما تحديد دور المحاج الأول فخصت به الحياةُ اليمامةَ رمز السلم والسلام[١٦] اللذين تدعو بهما:

- "فابدءوا باسم الخلَّاق الحكيم، وتكلمي يا يمامة فإنك رمز السلم والسلامة، قرن الله بهما عملكم، وأظَلَّ بهما في التفرُّق والاجتماع شَمْلكم".

وتركت أدوار الخصوم والمناوئين في الخطاب الأول لبقية الأحياء، الذين قبلوا هذا الدور وقبلوا معه دعاءها، وأيدوه بطلب الإجابة:

- "فَجَأَرُوا بلغة واحدة وصوت واحد بين زئير الأسد وصرير الجندب: آمين آمين".

يعبر العقاد عن هذا القبول العام للمناقشة بتعليق الراوي:

- "وقبل أن تبدأ اليمامة خطابها نظرتُ أتصفح ما حوته الغاب من تلك الوجوه، فسرعان ما توسمت العقل والمعرفة والتؤدة في الأناسيِّ منهم والوحوش".

في الأشواط الحجاجية التالية لخطاب اليمامة لا تتدخل الحياة في توزيع الأدوار بل يعرض كلُّ مَن يريد الاضطلاع بدور المحاج نفسه ويتسلم الخطاب.

الأفعال الكلامية التوجيهية تتعدد في مرحلة الافتتاح، وهي تُستَعمَل في إرساء الشروط الملزمة لجميع المشاركين: "فليكن لكم"– "فحافظوا"، وفي الدعوة إلى الدفاع وتوزيع الأدوار: "فابدءوا"– "وتكلمي".

أما نمط الأفعال المنوط به قبول الشروط والأدوار فهو نمط الأفعال الالتزامية، لكن القبول جاء هنا ضمنًا بفعل توجيهي ثانوي مَثَّله الدعاء المؤيد لخطاب الحياة "آمين آمين".

يتجاوز المشاركون في المناقشة إذن مجرد قبول الشروط والأدوار بأفعال التزامية، بل ينسب إليهم العقاد ترحيبًا تامًا بها بفعل توجيهي دُعائي ينم عن صدق نوايا الكائنات جميعًا في البحث عن حل.

في النظرية الجدلية– التداولية لا تؤدي التعبيريات عمومًا دورًا أساسيًا في المناقشة النقدية – كما سبق –، لكن قد يكون لها تأثير غير مباشر على مسار الحل من خلال إمكانياتها الانفعالية. وقد وظفها العقاد في خطاب الحياة في محاولة حشد جموع الأحياء من أجل رفع الألم عن الحياة/الأم نفسها في: "يؤلمني"، وعن أنفسهم في "يتمنى لو أنه صخرة...".

- **مغالطات مرحلة الافتتاح:**

القاعدة الخاصة بمرحلة الافتتاح في النظرية الجدلية– التداولية هي القاعدة الثانية التي تنص على أن المُحاج يجب أن يتحمل عبء الإثبات.

ولانتهاك هذه القاعدة طريقتان، أولاهما التهرب من عبء الإثبات، والثانية محاولة تحويله إلى الخصم (أي مطالبة الخصم بإثبات عكس وجهة النظر).

ومن وسائل التهرب من عبء الإثبات تحصين وجهة نظر ما من النقد، كالقول بأنها جزء من الطبيعة البشرية.

لم ينتهك خطاب الحياة هذه القاعدة بشكل صريح، لكن تشديده على محافظة كل حي من الأحياء على طبعه ومساواة تلك الطباع بالحياة نفسها ("وليس التجاوز عن هذه المعالم بأسهل عليَّ أو عليكم من التجاوز عن الحياة") يترك الباب مفتوحًا أمام تحصين أي وجهة نظر تُطرَح خلال المناقشة بِعَدِّها جزءًا من طبيعة صاحبها.

أي إن خطاب الحياة يمكن أن يُحَمَّل ما يمكن عده مقدمة غير مصرح بها مفادها أن كل ما هو من الطبائع صحيح، وهو ما يمكن التوصل إليه عبر تحويل الإضافة الذي يجريه فان إيمرن وغروتندورست ضمن خطوات إعادة بناء النص، فيعيد المقدمات الضمنية لجعل القوة التواصلية لوجهات النظر والاستدلالات صريحة وواضحة[١٧].

هذا التضمين يسمح فيما بعد خلال المرحلة الحجاجية بمغالطة أخرى تنتهك القاعدة السادسة المتعلقة بنقطة الانطلاق؛ فقد تُقدَّم قضية ما على أنها تنتمي إلى نقطة الانطلاق المشتركة هذه، دون أن تكون كذلك.

ثالثًا: مرحلة الحجاج Argumentation Stage:

تتوزع هذه المرحلة على كل الخطابات التالية لخطاب الحياة، على ألسنة مختلف الكائنات التي يُنطِقها العقاد رمزًا للرؤى المتصارعة في الحياة. فكلٌ منها يعرض وجهة نظره ويدافع عنها تجاه النقد المحتمل، ثم يليه غيره فيعرض وجهة نظره وينقد سابقتها.

وهذا تجسيد مرحلة الحجاج في النظرية الجدلية– التداولية، حيث إنها تتجلى في أجزاء الخطاب التي يقدم فيها أحد أطراف المناقشة حججه للتغلب على تشكيك طرف آخر حول وجهات النظر أو الحجج المضادة، ويتفاعل الطرف الآخر فيها بشكل ناقد.

إذا لم يقتنع الخصوم تمامًا بحجج المُحاج، أو لم تُفِد الردود الناقدة التي يقدمونها، قد ينتج مزيد من الحجاج، فيأتون بردود إضافية، يتلوها حجاج آخر من المُحاج، وهكذا دواليك، وقد تصير بنية الحجاج عندئذٍ في غاية التعقيد(١٨).

خطاب اليمامة:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب اليمامة:**

ينطلق خطاب اليمامة كما ينص العقاد نفسه فيه من "فلسفة الرحمة"، فهي تنادي بتغليب الرحمة والعدل وتطالب الأقوياء من الكائنات بالتخلي عن ظلم الضعفاء.

وقد وَظَّف خطاب اليمامة المخططات الثلاث – برغم قصره –، فاستعملت مظاهر حجاج الأعراض لغرض أساسي هو تقرير الحق الشرعي للمستضعفين في الحياة. فهي أولًا تحاول إثبات حقيقة كونية ترتكز عليها في زجر الأقوياء، مفادها أن الله منح

الكائنات الضعيفة إرادة البقاء وحق الحياة، فعمدت إلى حجة المثال الواقعي، وعددت أمثلة لتلك القاعدة، مُدَعَّمة بالدليل الديني الجاهز في مفتتح خطابها:

- "قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ومصداق هذه الآية الكريمة يا بني أمي قائمٌ في مُلْك الله الواسع أنَّى ذهبتم بأبصاركم، فقلبوا الطرف فيما حولكم هل ترون اليمام والزرازير أكثر أم البواشق والنسور؟ وهل البقر والشاء أبقى على القتل والذبح أم الأسود والنمور؟ ...

فإن تبيَّنتم – ولا بد أن تتبيَّنوا – أن الكثرة في جانب الضعف، فتدبَّروا ذلك تعلموا أن الله لم يخلق المخلوقات المستضعفة عبثًا، وأنه لم يقدِّر عليها الفناء مُذْ خلقها ضعيفة... بل وهب لها من إرادة البقاء ما وهب لعامة الأحياء، وتمت فيها هذه الإرادة بالكثرة كما تمت في سواها بالقوة، فالجناية عليها جناية على إرادة البقاء، والسطو على حياتها انتحار في صورة اعتداء.

ولقد سمعتم أمنا الرءوم تناديكم قائلة لكم إننا رضعنا جميعًا من لبانها".

ثم عادت بعدها إلى نوع الحجة نفسه، حجة المثال، لإثبات فعل مخالف تنسبه إلى الأقوياء:

- "إن بعضكم ليقلق أحشاءَه الجوعُ ساعةً، فما هو إلا أن يساق إليه حيوان ساعٍ نامٍ فينقض عليه فيزهق روحه لينال منه ملء فمه لحمًا، ثم يتركه جيفة لا حراك بها، وليت هذه الأكلة تغنيه عن الطعام بعدها، ولكنه يفعل ذلك كلما جاع، ويجوع في اليوم مرات، أَفَمِنْ أجل شبع ساعة تسلبون حياةً هي كل ما يملك صاحبها من الوجود؟ أليس هذا أقصى ما تنتهي إليه عبادة الغرض وتحكم الشراهة؟".

في المقتبس الأول تضافرٌ بين الحجاج المقارن والحجاج السببي، متمثل في قول اليمامة: "وتمت فيها هذه الإرادة بالكثرة كما تمت في سواها بالقوة، فالجناية عليها جناية على إرادة البقاء، والسطو على حياتها انتحار في صورة اعتداء"؛ حيث تعتمد على الحجة القائمة على العلاقة التبادلية وقاعدة العدل في إثبات المساواة في إرادة الحياة بين الكائنات الضعيفة والكائنات القوية، تصل منه إلى استنتاج يوظِّف ما يُعرَف في المنطق بـ"البرهان بالخلف" (Argumentation from the absurd) الذي يبرهن على بطلان قضية بإثبات بطلان نتائجها(١٩)، ليكشف التناقض بين رغبة الأقوياء في استحلال دم الضعفاء، ونتيجة هذه الرغبة المتمثلة في القضاء على استمرار حياة الأقوياء أنفسهم: "والسطو على حياتها انتحار في صورة اعتداء".

الأفعال الكلامية البسيطة الموظفة في هذين المقتبسين نوعان بالأساس، النوع الأول: الأفعال الإخبارية التي تقدم الفرضيات الأساسية للحجج أو تؤدي دور تبليغ الحجاج – كما تنص النظرية –: "قائم"– "تمت"– "وهب"– "إن بعضكم ليقلق أحشاءه".

ومن هذا النوع ما يستدعي الخلفية المشتركة التي أرساها خطاب الحياة سلفًا "ولقد سمعتم..."، ومن الأفعال الإخبارية كذلك ما يقدم نتيجة الحجة بعد رابط الاستنتاج، كما في "فالجناية عليها جناية على إرادة البقاء".

أما النوع الثاني فهو الأفعال التوجيهية، ووظيفتها الأساسية في مرحلة الحجاج وفقًا للنظرية الجدلية– التداولية طلب الحجاج بحد ذاته، أي تحدي أحد الأطراف للدفاع عن وجهة نظره أو مطالبته بتقديم استدلال عليها، وأما إذا قُصِدَت الأوامر والنواهي حرفيًا لغير هذا الغرض عُدَّ ذلك من المحرمات في المناقشة النقدية(٢٠).

التوجيهيات في المقتبسين السابقين على صنفين، يقترب أولهما من وظيفة التحدي التي أشار إليها فان إيمرن وغروتندورست – وإن كانا يخصانها بمرحلة الافتتاح لا الحجاج

–، لكنه ليس تحديًا للدفاع عن وجهة النظر، بل هو تحدٍ بواسطة المحاج نفسه يوجهه إلى معارضيه لإنكارها، بإنزالها منزلة الحقائق التي يدركها كل عقل، وهذا في مثل: "فقلبوا الطرف– تدبروا– ميزوا...".

أما ثانيهما فغير مقصود لذاته ويتمثل في أساليب الاستفهام المجازي الذي لا ينتظر إجابة، بل يعد بحد ذاته فعلًا إخباريًا غير مباشر إذا كان غرضه التقرير كما في أمثلتها عن اليمام والزرازير والبقر وصغار الأسماك... إلخ، ويعد فعلًا تعبيريًا غير مباشر إذا كانت غرضه الاستنكار والتعجب كما في "أفمن أجل شبع ساعة تسلبون حياة؟".

ومن الواضح أن تلك الأفعال البسيطة في كل مقتبس من الاثنين على حدة تشكل فعلًا حجاجيًا مركبًا ينتمي إلى حجاج الأعراض، وبضم الفقرتين معًا يتشكل فعل حجاجي مركب آخر ينتمي إلى الحجاج المقارن، يعبر عن التناقض بين إرادة الله في حفظ المستضعفين ونهج الأقوياء في إزهاق أرواحهم.

ليصل إلى نتيجة باتهام أولئك الأقوياء بـ"عبادة الغرض"، استخدم لها العقاد بدورها فعلًا توجيهيًا ثانويًا، إخباريًا غير مباشر هو الاستفهام التقريري في "أليس هذا أقصى ما تنتهي إليه عبادة الغرض وتحكم الشراهة؟".

مرة أخرى يتضافر الحجاج المقارن الصريح والحجاج السببي في خطاب اليمامة لتحذير الأقوياء من عاقبة سلب حقوق المستضعفين، عن طريق الحجة القائمة على العلاقة التبادلية وقاعدة العدل Rule of Justice [٢١] جنبًا إلى جنب مع الحجة النفعية Pragmatic argument[22] التي تطلق حكمًا قيميًا معتمدًا على النتائج الإيجابية أو السلبية، وتقوم هنا على التحذير من العواقب، فتقول:

- "إذ ليس من قدير بئيس فيكم إلا وثَمَّ مَن هو أقدر منه وأشد بأسًا، وليس من غالب بالقوة اليوم إلا وهو مغلوب بها غدًا، وهَبِ القوة انتهت إلى أحدكم... فهل أعطاه الدهر أمانًا على نفسه أن لا تقهره الكثرة أو المكيدة يومًا، فلا ترعى فيه عهدًا لإحسانٍ ولا ذمامًا لحق؟ وتذره ينادي العدل فلا يجده، ويناشد قاهريه الذمةَ فلا تُنجِده، فإذا نسي الرحمة وهو قادر عليها، فبِأَيّ وجهٍ يذكِّر بها سواه وهو محتاج إليها؟ أنا إنما أدعوكم إلى دين سواء بينكم يرضيكم جميعًا ولا يظلم منكم أحدًا؛ دين يحوطكم بحارس من العدل والحق ويرصد عليكم وازعًا من الواجب والضمير، فإن صدَّكم حارس العدل أو وازع الضمير مرةً عن أعدائكم، صدَّهم ألف مرة عنكم. والعاقل مَن لم يغتر بيومه وتدبرَّ عواقب أمره".

لم تختلف الأفعال الكلامية البسيطة الموظفة في هذا المقتبس عن أسلوب المقتبسين السابقين، فوظفت الأفعال الإخبارية لتقديم محتوى الفرضيات في هيئة حقائق، وهي مرفقة تارةً بعامل القصر الحجاجي الذي يقيد كل قوة بقوة أخرى تفوقها، وتارة بعامل الشرط الذي يوجه فعل الاستجابة نحو عاقبة إيجابية، وتارة ثالثة برابط الفاء الذي يوجه عدم الاستجابة نحو عاقبة سلبية.

كذلك من التوجيهيات ما يُقصَد به أداء فعل إنجازي غير مباشر، كفعل النفي الإخباري في: "فهل أعطاه؟"، وفعل الاستنكار التعبيري في "فبأي وجه؟".

ثمة فعل توجيهي مقصود لذاته في هذا المقتبس في "أدعوكم"، وهو فعل أدائي مباشر يخالف استعماله في المرحلة الحجاجية تصنيف فان إيمرن وغروتندورست، وفيه محاولة صريحة من المحاج/اليمامة لدفع المجتمعين إلى اعتناق مبدئها في الرحمة والعدل، والعمل به. أي إنه التماس صريح لما يُعرَف في نظرية الأفعال الكلامية بـ"الفعل

التأثيري" perlocutionary act، المرجو هنا من الفعل الحجاجي المركب الذي تكاملت فيه الأفعال الإخبارية البسيطة المُشَكِّلة لقضايا الأسباب والنتائج والقضايا المتناظرة.

يعمل الفعل الحجاجي على تحقيق فعل تأثيري اقتناعي لدى الخصم، هذا الفعل التأثيري الاقتناعي يقسمه فان إيمرن وغروتندورست إلى مستويين، الأول مستوى الفعل التأثير الأدنى minimal perlocution المتمثل في تعبير الخصم لفظيًا عن قبول وجهة نظر المُحاج، والثاني مستوى الفعل التأثيري الأمثل optimal perlocution الذي ينفذ إلى الحالة الذهنية والشعورية الحقيقية للخصم. وصحيح أن المُحاج يسعى إلى تحقيق الفعل التأثيري الأمثل، لكن من المنظور الحجاجي الفعل التأثيري الأدنى فقط هو ما يمكن ضبطه عُرفيًا، ومحاسَبة الخصم وفقًا لأدائه بإنكار أي قول أو فعل يتعارض مع وجهة نظر أقرها سابقًا بشكل لفظي في المحادثة، حتى لو لم يكن على اقتناع حقيقي بها(٢٣).

حتى هذا الفعل التأثيري الأدنى، لم تنجح اليمامة في نيل إجماع الحاضرين عليه، على الرغم من محاولتها التماسه بشكل صريح، فكما عبر العقاد راويًا:

- "لمَّا سكتَتِ اليمامة كان وقع كلامها مختلفًا بين خشوع وموافقة واستهجان وسخر وجمود".

- **المغالطات في خطاب اليمامة:**

القراءة الأولى لخطاب اليمامة لا تُظهِر انتهاكًا لأيٍ من قواعد المناقشة النقدية، لكن إجراءين لا بد منهما في التحليل يكشفان عكس ذلك:

الأول: إعادة بناء المقدمات الضمنية، فمطالبة الأقوياء باحترام حق المستضعفين في الحياة يعني ضمنًا التسليم بتصنيف الكائنات إلى أقوياء وضعفاء.

ولا تبدو في هذا القول مغالطة إذا ما أُخِذ على ظاهره المتعلق بعموم الكائنات، ولا تُكشَف المغالطة إلا بإجراء آخر هو إحلال المدلولات التي يرمز إليها العقاد نحل دوالها؛ فكتاب العقاد المتأثر بدوران رحى الحرب العالمية الأولى وصراع القوى فيها إنما يقصد صراع البشر وانقسامهم إلى أقوياء وضعفاء، وهنا يتضح في خطاب اليمامة مغالطتان لا مغالطة واحدة.

المغالطة الأولى انتهكت القاعدة الثانية من قواعد المناقشة النقدية – وإن كانت قاعدة تخص مرحلة الافتتاح، فيمكن عدها ضمن افتتاح جزئي لعرض رأي اليمامة –، فقد قدمت اليمامة قضية انقسام البشر إلى أقوياء وضعفاء بوصفها قضية محصنة ضد النقد غير مطروحة للنقاش، وعدتها جزءًا من طبيعة الأشياء، وهي تتملص بهذا من عبء إثباتها، بل وتعفي من تسميهم "الضعفاء" من مسئولية السعي إلى نيل مطالبهم، وتتخذ ذلك التحصين منطلقًا لمغالطة أخرى تنتهك القاعدة الرابعة التي تخص الحجاج ذا الصلة.

فقد تحول خطاب اليمامة عن مناقشة حقوق من يدعوهم بالمستضعفين أو المطالبة بقوانين تحكم ما لهم وما عليهم، إلى ما يسميه فان إيمرن وغروتندورست "الحيل البلاغية" أو "اللاحجاج"، فأحلت الحجاج العاطفي "الباتوس" محل الحجاج العقلي "اللوجوس"، وعمدت إلى استدرار تعاطف المجتمعين، منزلقةً إلى مغالطة التوسل بالشفقة تحت العنوان المزين "فلسفة الرحمة"، وذلك في استدعائها لعناصر العاطفة في خطاب الحياة:

- "ولقد سمعتم أمنا الرءوم تناديكم قائلة لكم إننا رضعنا جميعًا من لبانها، وإنه إذا نُسِب الأبناء فكلنا بضعة من جثمانها، وإنها تتألم في أصغر حي إذا الغاب مسه الألم، ويشق عليها أن تخرج منه ليستولي عليه العدم".

وكذلك في محاولة استدرار شفقة الأقوياء بقولها – سابق الذكر –: "أَفَمِنْ أجل شبع ساعة تسلبون حياةً هي كل ما يملك صاحبها من الوجود؟".

خطاب الثعلب:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب الثعلب:**

الثعلب عند العقاد – كما هو في مختلف الثقافات – رمز للمكر والخداع، حتى إنه يُعَدّ في بعض الثقافات من أتباع الشيطان(٢٤)؛ من ثم فإنه يعارض في خطابه ما جاء في خطاب اليمامة، وينطلق من مبدأ معاكس تمامًا هو "فلسفة المنفعة" إن صح التعبير، فيدعو صراحةً إلى طرح مفاهيم "العدل والحق والواجب والضمير" التي تقوم وجهة نظره على أنها "أوهام"، ويطالب بأن يسعى كل كائن إلى منفعته بأي وسيلة تتاح له.

لا يكاد حجاج الأعراض يظهر مستقلًا في خطاب الثعلب؛ فأغلب خطابه يقوم على التضافر بين الحجاج السببي والمقارن، يتناول فيه عددًا من القيم التي تعدها الأخلاق رذائل سلبية، وفي حديثه عن كلٍ منها ينشئ حجاجه على أساسين: الأول حجاج مقارن يهدف منه تارة إلى توضيح التناقض بين الموقف الأخلاقي النظري منها لدى الكائنات وواقع حضورها في أعمالهم، وتارة إلى قلب الطاولة على مبدأ أصحاب الرحمة والعدل باتهامهم بانتهاك مبدئهم. والثاني حجاج سببي داعم يبين بواسطته المنفعة المتحققة من وراء تلك القيمة السلبية.

في البدء يعمم هذا على الغرائز جميعًا، فيقول:

- "أطلقوا القيود عن غرائزكم المستقرة في فطرتكم، فهي أفضل من هذه الفضائل التي لا ترجع من طبائع النفوس، عاليها وسافلها، إلى أساس مكين".

بعدها يخص كل غريزة منها، فيبين منفعتها في مقابل نقيضها أو انعدامه، يقول عن الحسد:

- "إنكم تذمون الحسد وهو الحافز للكمال والمرغِّب في المزيد، وهل كان امتعاض الحي من أن يسبقه سابق إلا صورة أخرى لبغض النقص وحب الكمال؟ ولعمري كيف كان الخلق يتزاحمون على التقدم، إن كان أحدهم لا يسوءه أن يتقدَّمَ عليه سواه، ولا يشعر من نفسه بالكراهة له والنقمة عليه؟".

ثم يدعم قوله بحجة نفعية أخرى تبين أثره الإيجابي بقوله:

- "والخالق القدير أحكم من أن يودع هذه الصفة في النفوس عبثًا، فلا بد لها من منافع ترجح بما فيها من المضار، وأقل ما يقال فيها أنها تستفز الحاسد وتغري المحسود بالحرص على ما في يده، والازدياد منه خوف الشماتة".

وعن البغض يقول:

- "وأنتم تنكرون البغض وهو مسبار المقاومة، وعنوان مناعة الحوزة، وسياج النفس من أعدائها".

ويتبع قوله مباشرة بدعم يدخل تحت ما يُعرَف بـ"البرهان ذي الحدين" dilemma [25] الذي يحصر الخصم بين احتمالين كلاهما يؤدي إلى نتيجة سلبية لدفعه إلى اختيار أقل الضررين، بقوله:

- "فمَن لم يبغض عدوه لم يحبب نفسه ولم يَحْمِ حوزته، ومَن لم يحبب نفسه ويَحْمِ حوزته فهو جدير بالفناء".

يتواصل هذا النهج في حديثه عن النفاق، فيقول:

- "وأنتم تعافون النفاق والنفاق ديدن الطبيعة، والتلوُّن قانونها الذي لا تستحي منه".

ثم يدعم تعبيره عن التناقض بحجاج سببي وحجاج أعراض مختلط، يوظِّف فيه عدة حجج للمثال، يوصل كلًا منها بحجة نفعية، يقول:

- "ولو لم يكن النفاق أصلًا من أصول الطبيعة لَمَا كانت جلود الحيوان تتلون بألوان الأشياء التي تكتنفها لتخدع فريستها أو مفترسها، بل لَمَا زيَّنت الطبيعة صغار الذكور والإناث لينخدع بعضهم بجمال بعضٍ، فيندفعوا جميعًا في قضاء غرضها ولا غرض لهم منه؛ ولَمَا حببت الآباء في الأبناء ليدوم النوع ولا أرَبَ لأنفسهم في دوامه، بل لَمَا كان لكل مخلوق سر يضمره ويُظهِر للعالم خلافه، ولَمَا كان لكل أمة سياسة مجهولة وسياسة معلومة".

وهذا نهجه في كثير من المواضع، يقول مثلًا عن الأنانية في بيان منفعتها المناقضة لكراهية الكائنات لها، موظفًا الحجة النفعية:

- "وأنتم تحنقون على الأنانية، ولولا الأنانية لكنتم الآن في خبر كان، ولانقرض الأحياء وفاز الموت على الحياة في هذه الأرض".
- "والظافر الظافر مَن غلبت أنانيته على كل أنانية، وانطبع أثره على كل موجود، فإن الوجود لا يقوم بقولي إن غيري أحق بالخير مني، بل هو قائم باعتقاد كلٍّ أنه أحق بالخير من الخلق قاطبة".

ثم البرهان بالخلف في محاولة إبطال قضية ببيان بطلان نتائجها وتناقضها في قوله:

- "ومتى أصبح كل حي ينبذ عنه الحياة ليأخذها غيره، فمَن هو إذن الذي يعيش ويحيا؟ وعلى أننا لو فرضنا على الخلوقات أن تتخلى عن الخير لغيرها، فما هي في الواقع إلا أنانية مقلوبة تمشي على رأسها، وكأننا جعلنا كل مخلوق ينتظر الخير من غيره لنفسه، فأي شيء صنعنا؟ وماذا غيَّرْنَا من طبيعة الأنانية؟".

من أمثال هذا التضافر أيضًا بين الحجاج المقارن والسببي في خطاب الثعلب:

- "وأنتم تستقبحون الغدر، فهل قام أمر خطير قَطُّ بغير غدر؟".

وأيضًا استناده إلى البرهان ذي الحدين في حديثه عن الخيانة، فيقول:

- "وأنتم تقولون لا تَخُنْ مَن ائتمنك، فليت شعري إن كانت لك لُبَانة لازِبة، أتقضيها ممَّن يوجس منك ويستعد لغدرك، أم ممَّن يطمئن إليك ويثق بك؟".

في جميع هذه المقتبسات من الشوط الحجاجي الخاص بخطاب الثعلب يوظَّف نمطان أساسيان من الأفعال الكلامية البسيطة. الأول والأكثر ورودًا هو نمط الأفعال الإخبارية، وتسير في مسارين رئيسين:

أولهما مسار يستدعي حقائق ووقائع تُثبِت نفعًا طبيعيًا لعدد من القيم المعنوية المرذولة، تشكل الجمل التي ترد فيها هذه الأفعال فعلًا حجاجيًا سببيًا. من هذه الأفعال الإخبارية: "تستفز الحاسد وتغري المحسود"- "هو مسبار المقاومة" (أي: أخبرك بأنه مسبار المقاومة)- "النفاق ديدن الطبيعة"... .

ومن ذلك ما يُستعمَل له الشرط الذي يخبر عن تلازم حدثين مثل: "فمَن لم يبغض عدوه لم يحبب نفسه ولم يَحْمِ حوزته"- "ولو لم يكن النفاق أصلًا من أصول الطبيعة لَمَا كانت جلود الحيوان تتلون "-"ولولا الأنانية لكنتم الآن في خبر كان"... .

ومنها ما يمعن في درجة الالتزام بالخبر بتوظيف عامل التوكيد، كما في: "فإن الوجود لا يقوم بقولي إن غيري أحق بالخير مني"، وأيضًا بدعمه برابط التعارض الحجاجي "بل" في "بل هو قائم باعتقاد كلٍّ أنه أحق بالخير".

ثاني المسارين يستدعي حقيقة نفور الأحياء من تلك القيم، من أمثال: "تذمون الحسد"- " تنكرون البغض"- "تستقبحون الغدر"... .

ليكوِّن المساران معًا فعلًا حجاجيًا أكبر يندرج تحت الحجاج المقارن ويهدف إلى كشف التناقض.

أما النمط الثاني فهو الأفعال التوجيهية، ومرة أخرى يكون لها توظيفان – ليس منهما الوظيفة النظرية في المطالبة بتوفير استدلال ما –، التوظيف الأول يتجه إلى التوجيهيات الثانوية غير المقصودة لذاتها، بل لأداء فعل إخباري غير مباشر؛ فتنضوي ضمن غرض إثبات النفع للقيم المرذولة، وهي هنا أساليب الاستفهام التقريرية أو النافية، من أمثال: "وهل كان امتعاض...؟"– "فأي شيء صنعنا؟ وماذا غيَّرْنَا...؟"– "أتقضيها ممَّن يوجس منك...؟".

والتوظيف الثاني يمثله الفعل "أطلقوا القيود عن غرائزكم" وما أشبهه في الخطاب. وهو شبيه باستعمال اليمامة للتوجيهيات بغرض التماس الفعل التأثيري بالقبول أو الاقتناع من الحاضرين. وهو ما لم يحققه بدوره خطاب الثعلب؛ إذ ينص العقاد على أنه:

- "لما فرغ الثعلب من خطابه بهت الجمع، فوجموا ساعة لا ينطقون لفرط ما بدهتهم آراؤه المرعبة، فلما ثابوا إلى أنفسهم ضجوا وصخبوا، فعَلَا التصفيق من جانب، والصفير من جانب، وكادت تكون فتنة".

- **المغالطات في خطاب الثعلب:**

أكثر مغالطات الثعلب كانت انتهاكًا للقاعدة الأولى (الحرية)، على الرغم من أنها مختصة عند فان إيمرن وغروتندورست بمرحلة المواجهة؛ فأكثر حجاجه يقوم على نوع من الهجوم الشخصي يشير فيه إلى التناقض بين أفكار خصومه وأفعالهم – كما سبق التوضيح –، ومن أبرز مظاهر هذا المواضع التي اعتمد فيها على الحجة القائمة على العلاقة التبادلية وقاعدة العدل ليقلب الطاولة على خصومه ويتهمهم بمخالفة مبادئهم

نفسها بانتهاجهم أشكالًا من الظلم وسلب الحياة تجاه الأقوياء، فضلًا عن اقتران هذا بالتشكيك في دوافعهم للمناداة بتلك المبادئ من الأساس، مثل:

- "وأنتم تمقتون الكبرياء ومَن لم يمقتها منكم مَقَتُّموه، وهذا وايم الله من ظلم الضعفاء! لأن الكبرياء حق الكبير، والإدلال بالمقدرة مَزِيَّة القادر على العاجز، والقوي على الضعيف، لو حرمناه إياها لظلمناه وجعلناه كالضعيف".
- "وأنتم تتذمرون من القسوة والاعتداء لأنكم متشبثون بحياتكم، ولو أنصفتم القاسي المعتدي لعرفتم عذره، فإنه هو أيضًا يحب أن يحيا كما ينبغي لمثله، وإذا كان خوف القسوة والاعتداء من لوازم الحياة عند الضعفاء، فلا حياة بغيرهما عند الفاتك الصئول".
- "وإنكم ما اتفقتم على أن يكون لكلٍّ منكم ملكه، لا يعدو عليه أحد، ولا يشاركه فيه غاصب، إلا لأنكم وجدتم في ذلك مصلحتكم، فما هي حجتكم على مَن لا يجد مصلحته في قبول هذه الشريعة؟ أو على الذين يرون أنكم ظلمتموهم بسماحكم لمَن هم أقل منهم استحقاقًا وأحطُّ فِكْرًا بأن يكونوا أوفر حظًا وأجل قدرًا؟ أما والله إن العدل ليقضي بأن لا تلزموهم شريعتكم، وتتركوهم يدينون بما يرون فيه مصلحتهم ... بَيْدَ أنكم لا تقضون بالعدل بل تقضون بالغلبة، وأنتم تجبرونهم على الإذعان لشريعتكم لأنكم أكثر منهم عددًا، وليس لأنهم يتمسكون بمبدأ في التماس الرزق والقوة يخالف مبدأكم؛ فما من حجة لكم أو لهم إلا المصلحة دون سواها".

كما في خطاب اليمامة، ينتهك خطاب الثعلب أيضًا القاعدة الثانية (قاعدة عبء الإثبات) التي افترض فان إيمرن وغروتندورست اختصاصها بمرحلة الافتتاح. فخطاب الثعلب يعتمد على المقدمة نفسها التي قدمتها اليمامة، والتي تقرر انقسام الكائنات إلى أقوياء وضعفاء، وتعزوه إلى طبيعة الأشياء بلا إثبات.

ولكنه ينطلق منها في علاقة سببية من النتيجة إلى سبب مختلف عما تقرره اليمامة، فيقول:

- "وعظتْكم اليمامة وأوصتكم بالضعفاء، وقالت لكم إن الله بارك في مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها، أما أنا فأسلوبي في الوعظ غير هذا الأسلوب... أنا أقول لكم إن الله أَكْثَرَ من مخلوقاته الضعيفة لأنه قدَّر على أكثرها الفناء".

من ناحية أخرى فإن ثمة أكثر من فرضية يطرحها الثعلب ويبني عليها بلا محاولة لإثباتها تهربًا من عبء الإثبات، بتحصينها ونسبتها إلى الطبيعة وفطرة الخلق. من ذلك قوله:

- "فاعلموا يا إخوتي أن الحسد والبغض والنفاق والملق والكبرياء والأنانية والقسوة والسرقة والغدر والخيانة والتغاضي عن العورات ألصق بكم، وأقرب إلى طباعكم، وأجدى لكم، من العدل والحق والواجب والضمير، فهلموا بنا نقذف بهذه الأوهام في عرض اليَمِّ".
- "ولكني ناظر إلى النتائج البعيدة التي نجهلها نحن وتعلمها القدرة التي تسخرنا فيما تريد، فنحن نحب أحيانًا أن نخدع غيرنا بلا سبب نعرفه، وأن نستر الحقيقة بلا موجب لكتمانها... والحقيقة أننا نفعل ذلك مسوقين مرغمين".

وكذلك قوله عن الحسد:

- "ولكني أراه عميق المنبت في الطباع".

ينتهك خطاب الثعلب أيضًا القاعدة السادسة (نقطة الانطلاق)، ويتم هذا الانتهاك بعدة طرق يقدم بها القضية على أنها نقطة انطلاق مشتركة دون أن تكون كذلك. أبرز هذه الطرق مغالطة المصادرة على المطلوب[٢٦] التي تقدم حججًا تعادل في الواقع وجهة النظر المطلوب إثباتها نفسها، من ذلك:

- "فما دام في الدنيا القوي والضعيف، وما دامت المساواة مستحيلة، حتى بين الفردين من جنس واحد، والأخوين من نبعة واحدة، فلا عدل.

وما دام الجهل يغطي على أبصار الجاهلين، والخوف والاضطرار يلجِمان أفواه العارفين، والأمر يحسن اليوم ويقبح غدًا، فلا حق.

وما دامت البرية تحيا بالأهواء وتموت طبائعها بموتها، والغاية من الوجود مستورة عنَّا، والطبيعة لا تكشف لنا بواطنها القصوى؛ فلا واجب.

وما دام العدل مستحيلًا، والحق معدومًا والواجب مجهولًا؛ فلا ضمير".

وكذلك ينتهك الثعلب القاعدة نفسها من موقع المعارض لآراء غيره، فيشكك في بعض نقاط الانطلاق التي من المُفتَرض أن تكون موضع اتفاق ككراهية تلويث العِرض، أبرز مثال لهذا قوله:

- "وأنتم تزدرون مَن لا غيرة له ولا حمية عنده لعرضه، وكأيٍّ من لامز فيكم يهمس : هذا فلان العظيم كان يعلم عن زوجه ما يكره، وكان يتغاضى عن الشبهة وإنْ كانت لتفقأ عينه، طمعًا في مسعدة أو اتقاءً لمناوأة ... فهو نذل يدنس العظمة ويلوث الرئاسة! ... رويدكم أيها السادة! هَلَّا قلتم إن شغفه بالمجد أكبر من شغفه بزوجه، وإنه أشد على المجد غيرةً منه على امرأة؟

وهلَّا عرفتم أن البصقة تلوث الكوب، ولكن ألف جيفة لا تلوث البحر المتموج اليعبوب؟ وزعمتم أنه نذل مزدرى، فهَلَّا قلتم إنه يزدري العالم حين يترفع عن أحكامه ومصطلحاته، ويستجهل الدنيا حيث يراها تعبد المجد؟".

وهو في هذا المقتبس نفسه ينتهك قاعدة أخرى أيضًا هي القاعدة السابعة (الخاصة بالمخطط الحجاجي)؛ إذ يطبق في الواقع الحجاج المقارن بشكل مغالط فيصنع

تكافؤًا زائفًا بين قضيتين لا شبه حقيقيًا بينهما ولا تعارض، حين يساوي بين الغيرة على العِرض والغيرة على المجد.

وتتعدد أمثلة خرق الثعلب للقاعدة السابعة من قواعد المناقشة النقدية في مواضع أخرى عبر تطبيق مخططات حجاجية غير ملائمة من الأساس، من ذلك اختبار حقيقة وجهة نظر ما من خلال اعتبار نتائجها (مغالطة "التوسل بالنتيجة") في مثل:

- "فانبذوا من بينكم هذه الكلمات الفارغة :العدل والحق والواجب والضمير؛ فإنها أوهام يضيع الجهد وراءها هدرًا، وعلالات تخدع أصحابها ولا ترد عنهم ضررًا".

تحت هذا العنوان يندرج أيضًا مواضع توظيف الحجة النفعية السابق ذكرها. كذلك من طرق التطبيق غير الملائم لمخططات الحجاج، ما قد يحدث عند تبرير استنتاج عام على عينة غير ممثِّلة، وهذه هي مغالطة التعميم المتسرع hasty generalization [٢٧]، كما في حديث الثعلب –في نص سابق – عن كون النفاق "ديدن الطبيعة" والأمثلة التي ضربها على ذلك.

تتعلق القاعدة الثامنة بصدق المقدمات، ويُكتشَف انتهاكها عبر إجراء الاستدلال الذي يستعيد المقدمات الضمنية. من انتهاكات هذه القاعدة حديث الثعلب عن اختلاف موقف الكائنات بين سرقة الحقير ونهب العاتي بقوله:

- "فكأنكم لا تستطيعون أن تحتقروا إلا مَن يبالي باحتقاركم واحترامكم، وأما مَن يحتقركم ويستعبدكم فأنتم وأموالكم طوع يديه ورهن أمره، ولست ألومكم على ذلك فهذا هو الحق عندي؛ إذ من شأن الحقير أن يشعر بحقارة كل عمل يأتيه، لأنه لا يحق له إحراز ما عنده بَلْهَ السلب من غيره، وأما العاتي المتجبر فليس يصدر منه عمل حقير؛ لأن من شأنه أن يأمر ويتغلب على مَن لا يستطيع رد أمره والتغلب عليه".

فهو يتحول من الحكم على الشخص من حقارة فعله، إلى الحكم على الفعل نفسه من حقارة صاحبه أو جبروته؛ فبدلًا من القول بأن كل حقير يُحتَقَر، يقول إن كل مَن يُحتَقر هو حقير، وبدلًا من القول بأن كل عظيم يطاع، يقول إن كل من يطاع عظيم.

يمكن وضع البناء المنطقي الصحيحة للحجة كما يلي:

إذا كانت الناس تحتقر السارق فهو حقير

الناس تحتقر سارقًا

إذن هذا السارق حقير

أما البنية المخطئة التي اعتمد عليها الثعلب فهي:

إذا كانت الناس تحتقر السارق فهو حقير

الناس لا تحتقر سارقًا

إذن هذا السارق ليس حقيرًا

يفترض هذا البناء المساواة بين معنيَي "إذا" و"إذا، وفقط إذا" في المنطق، فهو يعتبر أن عكس القضية صحيح في حين أنه ليس كذلك، ما يُعرَف بمغالطة "إنكار المقدم"(٢٨).

خطاب القرد:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب القرد:**

للقرد أكثر من قيمة رمزية في ثقافات العالم، لكن ما يتضح من كتاب العقاد أنه لم يوظفه لأي دلالة رمزية منها، بل إن القرد عنده رمز لمبدأ التطور الحيوي وأفكار

النشوء والارتقاء. واستعمال خطابه لأنواع المخططات الحجاجية متأثر في مجمله بتلك الأفكار.

يقول في المقتبس الطويل التالي:

- "ليست القوة ضربًا واحدًا ولكنها قوتان: قوة السيل الجارف العرم، تجتاح السدود، وتدمر الصروح، وتهلك الحرث والنسل، وتطغى على العامر فتخربه، وعلى الغامر فلا تعمره، ثم تسيح على وجه الرمال فتذهب جفاء وينتهي بذلك أمرها، كأن لم تكن شيئًا مذكورًا، وهذه قوة الخراب. وقوة الينبوع العذب المتفجر الفيَّاض، تنسرب في مجاريها، وتسري سريان الدم في العروق، فتروي العطاش، وتصلح الموات، وتنبت على ضفافها الخيرات، وتنشأ فوقها المدن الآهلة، فيها سَكَن للناس ومستراد، والمروج الناضرة فيها مسرة للناظرين ورزق للعباد؛ وهذه قوة العمار. القوة قوتان: قوة البخار الهائم تعمي الأبصار هبوته، وتلفح الوجوه وقدته، وتتبدد في الهواء حركته، ثم يُمْحَى أثره وتغيب عن الأبصار صورته؛ وهذه القوة الطائشة وقوة البخار المضطرب في المراجل، يسيِّر الجبال، ويضاعِف ثمرات الأعمال، ويصل الغرب بالشرق والجنوب بالشمال، ينهض بما لا تنهض به الألوف المؤلَّفة من السواعد والمعاول، ويقضي في ساعة ما لم يكن يقضى في الدهر المتطاول؛ وهذه القوة الحكيمة".

ويقول:

- " فيا مَن يعبد القوة !أيُّ القوتين أحق بالسيادة وأولى من الخلق بالعبادة؟ فلقد مضى زمانٌ كانت فيه القوة كلها من الضرب الأول؛ قوة خراب طائشة همجية. كان ذلك وركب العالم في أول مراحله، فلما تقدَّمَ الركب اصطبغت القوة بصبغة أخرى أبقى لها وللعالم من صبغتها الأولى، واستقامت الفِطَر على هذه الوجهة دهورًا وأجيالًا بأمر الطبيعة أمِّ القوتين الطائشة والسديدة، لا بأمر عاملٍ فضولي من خارجها".

فنظرة كلية إلى خطاب القرد تبين أنه يوظِّف لتفنيد حجاج الثعلب حجاج الأعراض القائم على حجتَى التصنيف والتعريف لتقسيم نمطي القوة المرغوب فيه والمرذولة، متأثرًا بالتصنيف الحيوي للكائنات ومستعيرًا لمنهجية العلوم التطبيقية المحضة. بداخل هذا التصنيف يوظِّف حجاجًا مقارنًا يقوم على المفاضلة بين ضَرْبَي القوة اللذين يقرهما، مفاضلة مفادها أن أحد الضربين هو أرقى من الآخر.

جميع الأفعال الإنجازية في المقتبسين من نوع الإخباريات، جزء منها يجمع عددًا من الأحداث والصفات الإيجابية ذات الأثر الطيب لضرب "القوة الحكيمة"، والآخر يجمع نقائضها لضرب "القوة الطائشة"، ما ينتج عنه الفعل الحجاجي المركب الذي يشكل الحجاج المقارن.

وليس في المقتبسين سوى فعل توجيهي واحد، يُعَدّ بدوره إخباريًا غير مباشر، هو الفعل الاستفهامي التقريري "أيُّ القوتين أحق بالسيادة؟".

يؤكد مختلف الحجج الجزئية في خطاب القرد إسقاط معاني التطور والارتقاء تلك على دورة حياة الكائنات والبشر عمومًا، فهو يُشفِع وصفه لكلا الضربين بحجاج سببي يبين فيه نتائج الاحتكام إلى كلٍ منهما. تلك النتائج بحد ذاتها تتركز في كون الاحتكام إلى القوة المرذولة عنده ينتكس بالحياة إلى عصور الهمجية وما قبل التطور، وأن الاحتكام للقوة المرغوب فيها إنما جاء بفعل "تقدم ركب" العالم.

وأبرز الحجاج السببي عنده يعتمد على كلٍ من الحجة النفعية والبرهان بالخلف الذي يكشف مناقضة عواقب القوة المرذولة لما يُرجَى من استعمالها، بِرَدِّها صاحبَها إلى البدائية والازدراء، مع مقارنة هذا بالعواقب الإيجابية بعيدة المدى لدعم القوة بما فوقها من عدل وحق وواجب:

- "ومَن تمسَّك بالقوة وحدها أضاع القوة وتدلَّى إلى الضعف، وأما مَن تطلَّع إلى أعلى منها، فذلك الذي تدين له القوة، ويدين له ما هو أعلى من القوة".
- "فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها، ولو كانت أوهامًا مخترعة لوجب اتِّبَاعها؛ لأن العدل فوق المصلحة، والحق فوق القوة، والواجب فوق الهوى، والضمير فوق الشريعة، فمتى أردنا أن نظفر بالمصلحة، ونتصرف بالقوة، ونتمتع بالهوى، ونصون الشريعة، فعلينا بما فوقها، علينا بالعدل والحق والواجب والضمير".
- "كذلك تفسد الطبائع، فتنقلب قوة العظيم بلاءً على قومه ووبالًا لبني جنسه، فيقال لها حينئذٍ: قوة مدبرة من المدنية إلى الهمجية، وتُعَدُّ نكسة في الخلق، وأعجوبة نصفها بشري ونصفها حيواني وحشي، وهذه هي قوة الغشمة الطامعين".
- "فها أنتم أولاء ترون أن التسليم للقوة يهزمها ويضعفها، وأن مقاومتها تشحذ سلاحها وتضاعفها".
- "نعم، قد يظفر الأشرار بالأخيار، وقد يموت الأخيار قبل أن يظفروا بخصومهم لقِصَر الحياة واتساع مجال النضال، إلا أن الخير يتغلب على الشر في نهاية الأمر، وإنما يمهله ويملي له إملاء الواثق المطمئن إلى سلطان. الأخيار يموتون والخير لا يموت، والأشرار قد ينتصرون والشر لا ينتصر، فالنظرة الأولى أيها القوم للخير والثانية للشر، أما النظرة الثالثة فتردنا إلى خير لا كالخير الأول الذي يظهر على وجوه الأشياء، ولكنه خير واسع شامل بعيد القرار".

جميع الأفعال الكلامية في هذه المقتبسات أيضًا من الإخباريات وهي تشكل فعلًا حجاجيًا سببيًا مركبًا، وتكتسب قدرتها على الدلالة السببية من خلال التقييد فيما بينها بالشرط كما في: "ومَن تمسَّك بالقوة وحدها أضاع القوة"– "فمتى أردنا أن نظفر بالمصلحة... فعلينا بما فوقها"...، أو من خلال الروابط الحجاجية المدرجة للنتائج كما

في: "فتنقلب قوة العظيم بلاءً"– "لأن العدل فوق المصلحة"...، أو من خلال ما تحمله دلالة الأفعال (المعجمية) ذاتها من إيحاءات التعدي أو التحول كما في: "يهزمها ويضعفها"– "يظفر"– "يتغلب"...، وأخيرًا من خلال ألفاظ الأعداد الدالة على التراتب في: "النظرة الأولى"– "الثانية"– "الثالثة".

الاستثناء الوحيد من الإخباريات في المقتبسات السابقة هو الفعل التوجيهي المباشر "فاعلموا" وغرضه التماس الفعل التأثيري كما في أشباهه في خطابَي اليمامة والثعلب.

أما الأمثلة التي يضربها القرد ضمن حجاج الأعراض فإنما تشير إلى حالات وقع فيها مثل ذلك الانتكاس من القوة إلى الضعف، من ذلك المثال المتخيل في:

- "كأني بأول قوي عرف نفسه، فاعتز بسطوته وأعجبته قدرته، وأقبل يهز سيفه على رأس الضعيف ويقول له: إنك أضعف مني، فاصدعْ بأمري، وألحقْ وجودك بي، وسلِّمْني زمامك، واعملْ لي لا لنفسك، وإلَّا أَبَدْتُك وهشمتك وجعلتك ترابًا لقدمي. فرعب المسكين مما سمع، وتلفَّتَ الضعفاء بعضهم إلى بعض وقد علموا بعد حين أنهم مقصودون بهذا الوعيد فردًا فردًا، فأجلبوا وتألبوا وصاروا باجتماعهم أقوى من أقوى الأقوياء، فكرُّوا إلى ذلك المتمرد الجبار قائلين: إنك أضعف منا، فاصدعْ بأمرنا، وألحقْ وجودك بوجودنا، وسلِّمْنا زمامك، واعملْ لنا لا لنفسك، فإنْ أطعتَ أطعنا، وانتفعتَ بقوتك وانتفعنا، وإنْ أَبَيْتَ أبدناك وهشمناك وجعلناك ترابًا لأقدامنا ... فعلم القوي منذ ذلك الحين أن عليه واجبًا كما أن له حقًا، وكذلك".

ومثل ذلك الأمثلة الواقعية التي يمثل بها لأنواع البشر ذوي القوة الغاشمة وتسافلهم في سلم الارتقاء:

- "وإن شئتم برهانًا على أن العمل بالقوة فحسبُ هو خللٌ في الطبع، ورجوعٌ إلى حالٍ خلَّفها الإنسان وراءه ليتبدل حالًا خيرًا منها، فانظروا أيَّ الناس يظهر فيهم حب التدمير، ويغلب عليهم العمل بالقوة منفردة عن الضمير. أليسوا هم الطفل والهمجي والمجنون؟ فانظروا في أي مرحلة من مراحل الخلق هؤلاء الثلاثة؛ أما الطفل فهو في أول عهده بالحياة الفطرية، وأما الهمجي فهو في أول عهده بالحياة الاجتماعية، وأما المجنون فهو مدني سُلِبت منه المدنية فارتَدَّ إلى الهمجية أو الوحشية؛ إذ ليس الجنون إلا نوعًا من المسخ والرجعة، وآية ذلك دُور المجانين، ترون فيها مَن يمشي على أربعٍ تقليدًا للدواب، ومَن سُلِبت منه قوة النطق فأصبح يعوي عواء الذئاب، ويحاول الكلام كمَن لم يعرف قَطُّ ما هو النطق والخطاب، ومَن يأكل لحم أخيه حيًا كما ينهش السبع فريسته، ويتمَّر لأخيه المُشفِق تنمُّر الضيغم أخطأ قنيصته، وترون أمارات الوحشية بادية في ملامحهم ونظراتهم وإشاراتهم، فتعلمون أي مسافة بين القوة والضمير، وتهولكم هذه الهُوَّة التي يريد الثعلب أن يُسقِط الخَلْق عامةً فيها".

ومن ذلك أيضًا الأمثلة التي يضربها للأمم الفانية في الهند ومصر، حين "تأشب بين الطبقات حجاب" وكان "السوقة رجزًا" و"الشعب متاعًا زهيدًا"، يقول:

- "فماذا أورثهم ذلك؟ هل دام لأولئك السادة بأسهم، واستتب لهم مدى الدهر مجدهم؟ كلا، بل أمن الأعلياء على منازلهم فأفسدهم البطر والدعة فسفلوا، وحجرت المسكنة على نفوس جماهيرهم فلم ينبغ منهم خلف لأولئك الأعلياء، فتهافتوا، فكانوا جميعًا من الخاسرين".

إذا استُثنيَت الأفعال التي تندرج ضمن الحكاية على لسان شخصيات المثل في هذه المقتبسات، فلن يختلف توظيف الأفعال الكلامية فيها كثيرًا عن سابقاتها، فأكثرها من الإخباريات التي تستدعي الحقائق والوقائع والسمات: "فاعتز بسطوته"– "فعلم القوي"–

"يظهر فيهم حب التدمير، ويغلب عليهم العمل بالقوة منفردة"– " فأفسدهم البطر"– "فهو مدني سُلِبت منه المدنية فارتَدَّ إلى الهمجية"– "تهولكم هذه الهُوَّة"... .

أيضًا التوجيهيات منها إما أن تكون غير مقصودة لذاتها، وهي أساليب الاستفهام التقريرية والنافية: أليسوا هم الطفل والهمجي والمجنون؟"– "فماذا أورثهم ذلك؟ هل دام لأولئك السادة بأسهم؟"... فهي أفعال إخبارية غير مباشرة، وإما أن تكون مقصودة لذاتها، ومثالها هنا: "فانظروا في أي مرحلة من مراحل الخلق هؤلاء الثلاثة"، لكنه لا يُقصَد به هذه المرة التماس الفعل التأثيري، بل يقترب من غرض المطالبة أو التحدي لتقديم استدلال، لكنه يأتي من طرف المُحاج نفسه محيلًا المشاركين إلى الحقائق الخارجية وملتمسًا دعمهم.

يلفت في خطاب القرد استعمال حجة النموذج، وهي نمط من الحجاج المقارن، إذ يدعو القرد من خلالها إلى اتباع الأنبياء في دعوتهم إلى العمل الصالح مع عدم ادعائهم اقتلاع الشر من جذوره:

- "إنما يعمل الأنبياء على تغليب بواعث الخير على بواعث الشر، وَلْتعلموا أن الأنبياء لم يُرسَلوا إلى فلان وفلان، بل هم مُرسَلون إلى الناس أجمعين، فلا جرم ينصحونهم بما فيه صلاحهم جميعًا، وما اجتهد الأنبياء قَطُّ في إزالة الشر، ولكنهم أنذروا الشرير بعاقبته وعلموه كيف يتجنبها، وبشَّروا البارَّ بجزائه وعلَّموه كيف يسعى له، وعَلِموا أنهم سيموتون والشر والخير باقيان إلى يوم يبعثون".

وجميع أفعال هذا المقتبس الكلامية أيضًا من الإخباريات المحيلة إلى حقائق ووقائع، باستثناء الفعل التوجيهي في "وَلْتعلموا أن الأنبياء لم يُرسَلوا إلى فلان وفلان..." وهو من الأفعال التي تلتمس تحقق الفعل التأثيري، والتي لم يُشِر فان إيمرن وغروتندورست إليها في المناقشة النقدية.

- **المغالطات في خطاب القرد:**

لم يُظهِر العقاد القرد كثير المغالطة في خطابه، فمغالطاته معدودة على الرغم من طول الخطاب. لكنه بالطبع لا يبرأ تمامًا من انتهاك القواعد وإن لم يكن بقصد التحايل أو سوء النوايا.

فكغيره من المتحاجين ينتهك خطاب القرد القاعدة الثانية الخاصة بعبء الإثبات، بارتكانه إلى "إرادة الطبيعة" في تحصين وجهات نظره، وذلك في قوله:

- "إن كان في الدنيا شيء معصوم من الخطأ فهو فطرة النفوس السليمة، لأنها لا تريد إلا ما تريده الطبيعة لها، ولا تهم إلا بما تهم به القدرة العظيمة التي ركبتها ودعتها إلى الوجود".

كذلك ينتهك القاعدة السادسة فيعمد إلى المصادرة على المطلوب بجعل نتيجة حجته مجرد صياغة أخرى لمقدمتها، في قوله:

- "فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها، ولو كانت أوهامًا مخترعة لوجب اتِّبَاعها؛ لأن العدل فوق المصلحة، والحق فوق القوة، والواجب فوق الهوى، والضمير فوق الشريعة"، فالقول بأن العدل فوق المصلحة لا يختلف في عمقه عن القول بأن العدل واجب الاتباع.

ولعل أبرز مغالطة في خطاب القرد جاءت في نهايته بانتهاكه القاعدة الرابعة، ولجوئه إلى حجاج وجه الذات (الإيتوس) ليحله محل الحجاج العقلي، في إعلائه من شأن جنسه على بقية الأحياء بقوله:

- "ولقد خصصت الإنسان بأكثر كلامي، فلا يعتب عليَّ عاتب ولا يتهمني منكم متهم، فإنكم لا تنكرون أن الإنسان سيد المخلوقات، وأن الصراع بين القوة والحق لا يظهر

في حياة جنس من الأجناس ظهوره في الحياة الإنسانية، وأنا أقرب الخلق إليه وأعرفهم به وأعلاهم رتبة بعده"[٢٩].

يجدر بالملاحظة أن خطاب القرد – كسابقيه – لم يحظَ بالفعل التأثيري الذي ينشده، ربما السبب الأساسي لهذا الفشل هو هذه المغالطة التي أغضب مضمونها النمر فانتهك بدوره القاعدة الأولى للمناقشة النقدية:

- "فلم يمهله النمر حتى يتم كلامه ورفع يده ليهوي بها عليه، فتعلَّق القرد بأطراف الشجر، وترك النمر الهائج يهدر ويزمجر".

خطاب الأسد:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب الأسد:**

يحاول خطاب الأسد القصير أن يتخذ ظاهريًا موقفًا وسطًا بين الثعلب والقرد، فهو يقف مع مبدأ القوة، لكنه يتفق مع القرد في كونها أصنافًا ودرجات، وإن كان يخالفه في أساس تصنيفها بين قوة مادية وأخرى معنوية، وهو لهذا يخالف الثعلب في جعل القوة والضعف حتمية طبيعية، بل يعدهما اختيارًا. ولعل في هذا اتفاق مع رمزية الأسد النفسية في ثقافات العالم؛ فهو يجمع بين الطاقة الهائلة والحِلم، وهو قيادي دون أن يبذل جهدًا في هذا[٣٠].

ولذلك لا يكتفي الأسد بحجة نفعية في دعم صحة مبدأ القوة اعتمادًا على الظفر الذي تحققه – كما رأى الثعلب –، بل يتبعها ببرهان ذي حدين سببي– مقارن مشترك لا يعتمد على المنفعة المتحققة بل يقصي المنفعة ويعلي من شأن القوة وإن انهزمت، فيقول:

- "فسواء صحَّ قول الثعلب إن العبرة بالنجاح لا بكيفيته، أو صحَّ قولُ القرد إن الحق ظافر بالباطل ولو بعد انهزامه، فأول الواجبات عندي على الحي أن يكون قويًا، وآخِر الواجبات عندي على الحي أن يكون قويًا؛ لأنه لا ظفر لحق أو لباطل إلا بقوة.

وهما حالتان لا بد للحي من إحداهما في هذه الدنيا: القوة والضعف. ولئن خُيِّرتُ بينهما لأختارنَّ أن أكون قويًا ظالمًا، ولا ضعيفًا مظلومًا، بل إني لأوثر أن أكون قويًا مظلومًا ولا ضعيفًا ظالمًا؛ لأن القوة رائعة في انخذالها، والضعف مخزٍ حتى في انتصاره".

وجميع الأفعال الإنجازية هنا من الإخباريات التي تعرض وجهات النظر، ويؤدي بعضها الفعل الحجاجي المركب المقارن أساسًا بواسطة ترابطها معًا عبر دلالة الفعل "لأختارنّ" أو أداة التخيير "أو"، والبعض الآخر يؤدي الفعل الحجاجي السببي المركب بواسطة الرابط الحجاجي المدرج للنتائج "لأنّ".

لكن الأسد يعود ليقترب من توظيف الثعلب لحجاج الأعراض القائم على حجة المثال، بعرض أمثلة تعتمد على الاحتجاج بالطبيعة:

- "إن الطبيعة نفسها تحب الظلم وتقلِّد الظالمين آلاته وأسلحته، ولولا ذلك لما كانت حيوانات الفتك والافتراس وإن صغرتْ، أشدَّ وأجرأ من آكلات العشب وإن كبرت، وهاكم إخوتنا الفيل والزرافة والجمل، فإنها مع جسامة أبدانها وصلابة أركانها لا بطش عندها تفزع به أعداءها، ولا أنفة لها تنخيها عن إعطاء مقادتها لأصغر طفل من بني آدم. ولِمَ ذاك؟ أليس لأنها تتغذى بالنبات ولا تأكل من لحوم الحيوانات؟ فكأن الطبيعة تهب الحيوان البطش والشجاعة لغرض واحد هو الاعتداء بهما، فإن لم تكن به حاجة إلى السطو وإزهاق الأرواح سلخت عنه البطش وجردته من الشجاعة".

ثم يعود خطاب الأسد ليستميل الضعفاء بعزو أصناف أخرى من القوى إليهم موظفًا حجاج أعراض يعتمد حجة التصنيف، ويستند إلى مبدأ حجاجي من المواضعات هو ترجيح الممكن على غير الممكن، يقول:

- "فإن بقي له بعدهما قوة فتلك قوة الصبر على البلاء لا قوة العزم على الاعتداء، قوة تحتمل الضيم من القاهرين، ولكنها لا تقدر على قهر أحد.

فيا معشر الأحياء، عليكم بالقوة لا تنيطوا لكم أملًا بغيرها. عليكم بقوة الاتحاد إن تخطتكم القوة في الانفراد، وعليكم بقوة الحيلة إن أعيتكم قوة الاتحاد. إنما كونوا في كل حال أقوياء من عقاب الضعف المبرم، ولستُ أغلِقُ على الضعفاء بابَ الأمل فيما بين الأقوياء الطامعين من فرجات الخلاف التي لا تنسدُّ أبدًا، ولكني أقول لهم أولًا وآخِرًا :كونوا أقوياء، ثم كونوا أقوياء، يَكُنْ أملكم بأيديكم لا بأيدي الأعداء والأصدقاء".

أكثر الأفعال في هذين المقتبسين أيضًا من الإخباريات التي تستدعي الحقائق والوقائع: "تحب الظلم"– "لا بطش عندها تفزع به أعداءها"– " لأنها تتغذى بالنبات"– " قوة تحتمل الضيم"... .

لكن ثمة أفعال إنجازية بارزة من التوجيهيات منها اسما فعل الأمر "هاكم" بمعنى "خذوا" وهو يوظَّف في حجاج الأعراض للإحالة إلى مشاهدات واقعية، و"عليكم" – المكرر – بمعنى "الزموا"، وهو مع تكرير الفعل "كونوا أقوياء" من التوجيهيات التي تلتمس الفعل التأثيري لدى المتلقين مباشرة، وتدخل في تشكيل حجاج سببي عبر الانتظام في أسلوب الطلب وجواب الطلب.

- **المغالطات في خطاب الأسد:**

كغيره من الأحياء التي يُنطقها العقاد ويضع أفكاره على ألسنتها، يرتكن الأسد إلى تحصين وجهات النظر بعزوها إلى قوة الطبيعة، كما يتضح من المقتبسات السابقة.

فضلًا عن هذا ينتهك خطاب الأسد القاعدة العاشرة، فكل ما يقوله يتفق في واقع الأمر مع بعض مضمون خطاب الثعلب في دعوته لرضوخ كل كائن إلى ما قُدِّر عليه بحكم الطبيعة من ضعف أو قوة، غير أنه يحاول إخماد غضبهم ونيل تأييد وهمي منهم؛

عبر تسمية الضعف الذي صرح به الثعلب أصنافًا ودرجات للقوة، في تلاعب بالتسميات لا غير.

ولا يبدو في خطاب الأسد خروق أخرى لقواعد المناقشة، لكنه، ودون أن يتعمد، يخرق القاعدة الأولى، فمجرد كونه الأسد ملك الوحوش ورمز السيادة والقوة الحربية، كان كافيًا بإخافة المجتمعين ومنعهم من إبداء المعارضة:

- "فلما انتهى الأسد من كلامه تهيَّبت الحيوانات أن تعقب عليه، وظل كلٌّ منها ينتظر أن يتقدَّمَ غيره للكلام بعد الأسد؛ إذ كانوا لا يريدون أن يوافقوه على رأيه وحكمه، ولا يهتدون إلى وجه الحيلة في مناقشته".

خطاب المرأة:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب المرأة:**

وسط نقاش محتدم حول مفهوم الحياة ومبادئها قامت المرأة – كما أنطقها العقاد – لتطالب بمساواتها بالرجل وحقوقها في مختلف مجالات الحياة، بما يبدو انحرافًا عن قضية النقاش وتفريعًا له إلى قضايا خاصة لا تهم مجمل الحاضرين، وهو ما عبر عنه العقاد بالفعل بعد نهاية خطابها بإغفال الحاضرين لما قالته، واتخذه موطئ قدم لهجوم الرجل/الإنسان عليها فيما بعد.

في خطاب المرأة القليل فقط من حجاج الأعراض ويقوم أساسًا على ضرب الأمثلة والأقل من الحجاج السببي في بعض التفاصيل الصغيرة، أبرزها الانتقال من النتيجة إلى السبب بغرض اتهام الرجل بالغبن تجاه النساء وتبرئة النساء من الخطأ في قولها. يظهر كلا النمطين في قولها:

- "على أننا لا نذكر أن المجال اتسع لنا مرةً لمجاراة الرجال فيما يباهون به من أعمال العقل والحزم، فقصرنا عن شأوهم ولم نفر فريهم، فمنا نساء الحرب اللواتي كُنَّ يقاتلن

مع الرجال كتفًا لكتف؛ نضحًا عن أوطانهن ومحاماة عن بعولتهن، ومنًّا الشواعر والرياضيات والكواهن والملكات والبواحث والطبيبات، فإن كان عدد هؤلاء لا يضاهي بعدُ عدد أمثالهن من الرجال فليس هذا من خطئنا، وإنما هو خطأ الرجل الذي أهمل فينا تلك المواهب وشغلنا بما هو أحط منها شأنًا وأقل نفعًا، موافقةً لأهوائه ومرضاةً لكبريائه".

في هذا المقتبس تتضافر الأفعال الإخبارية التي تعرض حقائق ووقائع محضة لأداء الفعل الحجاجي القائم على ضرب الأمثال، من ذلك: "فمنا نساء الحرب اللواتي كُنَّ يقاتلن"، كما تتضافر الأفعال الإخبارية التي تعرض رأيًا موجهًا باتهام الرجل لإنتاج فعل الحجاج السببي كما في: "لا نذكر..."- "هو خطأ الرجل الذي أهمل..."، مقترنًا بالتعبير عن العلاقة السببية في إضافة المصدر إلى فاعله، وتفعيل الموقع النجوي للمفعول لأجله.

وباستثناء تلك المواضع الثانوية فإن أكثر حجاج المرأة العقلي يعتمد على الحجاج المقارن؛ فهي تقارن علاقة الرجل والمرأة بغيرها من العلاقات الحية لتسويغ صلة حديثها بالمناقشة:

- "شغلكم البحث في النزاع بين القوة والضعف، والغلاب بين الحق والباطل، عن البحث في علاقة هي ألصق بكم من كل علاقة، أعني بها علاقة الزوج بزوجه، فرُبَّ قوي منكم لا يعرض له ضعيف في غدواته وروحاته، ورُبَّ ضعيف لا يمنى بقوي طول حياته، على حين لا يوجد بينكم ذكر لم يسكن إلى أنثى، أو أنثى لم تسكن إلى ذكر".

وتقارن وضعها بغيرها من إناث الكائنات الأخرى لبيان الظلم المحيق بها في حجاج قائم على حجة النموذج:

- "فإنكم لا تبخسون لإناثكم قدرًا، ولا تهضمونهن حقًا، وأكثركم يكل إليهن اختيار مَن يعجبهن منكم، فتنتخب الأنثى مَن تحب وتصدف عمَّن تكره، فهن معكم في حالٍ لا توجب الشكوى ولا يستحب معها التبديل.

أما نحن بنات حواء فليت لنا عند رجالنا حظوة إناثكم من ذكوركم؛ نحن نساق سوقًا إلى أغراض ليست بأغراضنا، وتُغمَض أعيننا عمدًا إلا عمَّا يروق أزواجنا. نحن معطَّلات إلا عندما يشتهينا الرجال، مقصورات إلا عمَّا يرضونه لنا من ضروب الكمال".

وتعتمد مماثلة بين حالها في الماضي (عصر الهمجية) والحاضر (عصر المدنية):

- "أخضعتنا الهمجية بالقسوة، وأذلتنا المدنية بالحاجة، ولكن الهمجية كانت أعدل معنا وألطف بنا من المدنية، فقد كانت توقعنا في أحضان أشد الرجال أسرًا وأمتنهم خلقًا وأحماهم أنفًا، ولم يكن أفضل لنا ولنوع الإنسان من هؤلاء الرجال في تلك الأجيال، أما المدنية فإنها تجرنا إلى فراش أوفر الرجال حطامًا وأسناهم مقامًا، من كل أعجف أصلف، محدودب الظهر مأفون الفكر، مرذول الخلقة والخليقة".

أما صلب حجاجها العقلي فيعتمد على مقارنة حالها بالرجل والمطالبة بمساواتها بغيرها من المنتفعين بالتمدن ورقي المجتمعات عن طريق الحجة القائمة على العلاقة التبادلية وقاعدة العدل:

- "أفما كان ينبغي حينئذٍ أن تشمل هذه المساواة كلَّ مَن كان مغبونًا بالأمس؟ نعم ولكن هذا ما لم يكن، فقد بقي النساء مستثنيات من هذه الرحمة العامة حتى في أرقى الأمم وأعرقها مدنية.

وإن تعجبوا معشر الأحياء فاعجبوا لامرأة تملك الضِّيَاع الفيحاء والرباع القوراء، والمتاجر الجوابة والمصانع الدوارة، وتسن القوانين لإصلاح هذه الأموال وحياطتها فلا تخول في سنها صوتًا يخوله رجل لا يملك أصبعًا من ضيعة أو لبنة من دار أو علبة في متجر أو مسمارًا في مصنع؛ وتحرز إحداهن أسمى شهادات العلوم والفنون، ثم لا يسعها إلا أن تيأس اليأس كله من منصب قد يتطاول إليه رجل لم يَمُرَّ في حياته بشارعٍ فيه مدرسة. فهل حالٌ أعجب من هذه الحال فيما تعلمون؟ أنُبلَى بسيئات الهمجية ثم نُحرَم حسنات المدنية؟ فأين إذن يكون إنصافنا؟ ومتى نخلص من أسرنا؟".

- "ونحن بعد أصلح للحياة الاجتماعية لما ثبت من ندرة الجرائم بيننا في جميع الأمم، وأصح تركيبًا ومزاجًا لما تقرَّر من قلة الوفيات منا في الطفولة والهرم".

وتخلص من ذلك إلى حصر الموقف العادل في صفها بتوظيف البرهان ذي الحدين:

- "فنحن غبينات إن رضينا بهذه القسمة الضيزى، نحن خليقات بالغبن إن لم نطالب لأنفسنا بخير منها، وها أنتم أولاء مجتمعون ههنا لتبعدوا أسباب التخاصم وتقربوا وسائل التفاهم، فهَلَّا أهبتم بالرجل أن امنع الغبن من بيتك قبل أن تمنعه من الدنيا".

في جميع هذه المقتبسات يغلب نمط الأفعال الإخبارية التي تعرض حقائق أو وقائع للأحوال التي تصفها المرأة لكل زوج من أزواج مقارناتها، مثل: "رُبَّ قوي لا يعرض له ضعيف" و"لا يوجد بينكم ذكر لم يسكن إلى أنثى"- أشد الرجال أسرًا" و"أوفر الرجال حطامًا"- "تحرز إحداهن أسمى شهادات العلوم" و"رجل لم يَمُرَّ في حياته بشارعٍ فيه مدرسة"...، أيضًا ترد تلك الأفعال الإخبارية التي تعرض الرأي المفاضل الصريح بتوظيف اسم التفضيل مثل: "أصلح"- "أصح"- "أعدل"- "أفضل"... . وجميع هذه الأزواج المتقابلة من الأحوال الموصوفة تشكِّل الفعل الحجاجي المركب القائم على الحجاج المقارن.

وتكثر التوجيهيات في الشوط الحجاجي الذي تقدمه المرأة عن غيرها، فيما يبدو محاولة للشكوى وتوسل المشاركة، يبرز في هذا الشأن الفعل "فاعجبوا لامرأة تملك الضِّيَاع... وتُسَن القوانين لإصلاح هذه الأموال... فلا تخول في سَنها صوتًا يخوله رجل لا يملك أصبعًا..."، وهو في حقيقته التماس لفعل تأثيري لكن هذا الفعل التأثيري ليس الاقتناع بحجاج ما، بل التعاطف.

أما بقية التوجيهيات فهي من النمط غير المقصود لذاته، بل يُعَدّ أكثرها من الإخباريات غير المباشرة التي شاعت في جميع أشواط المرحلة الحجاجية، والمتمثلة في الاستفهام المجازي. ومنه هنا ما هو نافٍ مثل: "فهل حالٌ أعجب من هذه الحال فيما تعلمون؟"، وما هو تقريري مثل: "أفما كان ينبغي حينئذٍ أن تشمل هذه المساواة كلَّ مَن كان مغبونًا بالأمس؟".

وقد يوظَّف من أساليب الاستفهام ما يُعَدُّ فعلًا تعبيريًا غير مباشر، كما في الاستفهام التعجبي الاستنكاري: "أنُبلَى بسيئات الهمجية ثم نُحرَم حسنات المدنية؟ فأين إذن يكون إنصافنا؟ ومتى نخلص من أسرنا؟".

ثمة فعل تعبيري مباشر واحد في المقتبسات السابقة مَثَّله أسلوب التمني "فليت لنا عند رجالنا حظوة إناثكم من ذكوركم"، والفعل التعبيري عمومًا لا تسهم من الوجهة الحجاجية في الإقناع، ولا يدل على شيء سوى محاولة المرأة كسب تعاطف المجتمِعين والمجتمِعات.

- **المغالطات في خطاب المرأة:**

لا يشذ خطاب المرأة عن أقرانه في انتهاك القاعدة الثانية بنسبة وجهات نظر إلى حكم الطبيعة بلا برهنة، حكم الطبيعة الذي يؤوله كلٌ منهم حسب ما يناسبه. تقول المرأة:

- "أما حاجات الطبيعة المكتوبة في كل ذرة من ذرات أجسامنا، من رونق للصبا يرقص له قلب المرأة، ونضرة للعافية تتشوق إليها جوانحها، وخصال نبيلة وصفات رائعة وروح خلابة يسرها أن تنقلها إلى أبنائها، وأن تنجب جيلا كله مصوغ في قالبها، فقد علَّمَتْنا المدنية أن نُنزِلها المنزلة الثانية بعد حاجاتها، فإذا نسينا أنفسنا طرفة فتغلبت إرادة الطبيعة القهارة علينا فنلنا من تلك الحاجات نصيبنا، كان أول مَن يسفِّهنا ويهجرنا آباؤنا وأهلونا".

أما المغالطة التي شملت مقتطفات واسعة من خطاب المرأة ودُمِجَت في كثير من فقراته فهي من انتهاكات القاعدة الرابعة، حيث يطغى في كثير من الأحيان الحجاج العاطفي (الباتوس) على الحجاج العقلي، في محاولة من المرأة لاستعطاف غيرها من إناث الكائنات الأخرى. وهذا ما بدا في بعض المقتبسات السابقة من خطابها، كوصف بنات جنسها بأنهن "مغبونات"- "معطلات"...، والتعبير عن تعرضهن للإخضاع والظلم والبلاء والقسوة والبخس، وغير ذلك من ألفاظٍ ذات إيحاءات عاطفية سلبية تدعو إلى الشفقة والعطف، وهو ما يفسر ورود شيء من الأفعال التعبيرية في خطابها، إلى جانب محاولتها إنشاء حوار وتقديم شكوى أمام الأحياء – كما سلف –.

يجدر بالملاحظة أيضًا أن محاولتها تلك لم تلقَ الفعل التأثيري المنشود، فقد:

- "جلست المرأة وهي توهم نفسها أن إناث الحيوان ستهب على الفور للأخذ بناصرها، فلم يحصل شيء من ذلك، ونظرت كل أنثى إلى صاحبها وهي تبتسم".

<u>خطاب الإنسان:</u>

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب الإنسان:**

ما يعنيه العقاد بالإنسان في "مجمع الأحياء" له في الحقيقة وجهان، الوجه الأول يقصد به "الرجل" دون المرأة وفي مقابلها. والوجه الثاني هو فرد الجنس البشري في مقابل

بقية الأجناس الحية. ولعل هذا من أثر ازدواج المعنى في الكلمة الإنجليزية المرادفة man، وقد يكون بحد ذاته تأثرًا ببعض الأطروحات القديمة التي كانت تعد المرأة جنسًا أدنى من الرجل في تصنيف الكائنات الحية(٣١).

هذا الازدواج في استعمال الكلمة أدى إلى انقسام خطاب الإنسان في المؤتمر إلى قسمين قد يُعَدَّان خطابين منفصلين من الأساس.

القسم الأول يرُدُّ فيه على وجهات النظر التي قدمها خطاب المرأة، ويوازيه في اعتماده الكبير على الحجاج المقارن، باستعمال مقارنات بين الرجل والمرأة، يعتمد فيها أحيانًا على قاعدة العدل، من ذلك:

- "ظنت المرأة أن ادِّعاءها الحزم وسعة العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادِّعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع، مع أن الأمرين بمنزلة واحدة من الصعوبة والاستحالة، وكل ما بينها من الاختلاف أن مَزِيَّة المرأة في التركيب الجسمي ظاهرة للحس، وأن مَزِيَّة الرجل لم تظهر بعدُ في شكل خصوصية جسمانية".
- "فالجمال في المرأة كالسيف في يد الرجل، وكثيرًا ما صارع الجمال السيف فثلمه وفَلَّ حدَّهُ وأخذ بمقاده، ولا عار في الانهزام أمامه؛ لأن في هذا الانهزام انتصارًا للطبيعة، والمهزوم أمام سلاح الطبيعة غير مغلوب".
- "لِمَ تنفر المرأة من الرجل المتأنِّث المترهِّل؟ أليس لأنها تعرف بفطرتها أن استجماعه لأوصاف الأنوثة ناقص من أوصاف الرجولة التي تنشدها فيه؟ فما لها إذن تلوم الرجل على كراهية المرأة المترجلة كما تكره هي الرجل المتأنث؟ وما هو الظلم الذي تشكوه منه ما دام كلاهما مسوقًا إلى غاية واحدة؟".

والحجاج المقارن في خطاب الإنسان المواجه لخطاب المرأة يؤول في معظمه إلى حكم الطبيعة الذي لا يمكن مخالفته، فيقول:

- "قالت المرأة بين أيديكم إن الرجل يظلمها إذ لا يرى لها من المحاسن إلا ما يروقه، فإن كانت المرأة تَعُدُّ ذلك ظلمًا، فهو العدل جد العدل في حكم الطبيعة".

تحيل الإخباريات في هذه المقتبسات إلى حقائق أو وقائع يعمل الإنسان على بناء نتائجه عليها: "ظاهرة للحس"– "لم تظهر بعد"– "فثلمه وفَلَّ حدَّهُ"– "تنفر"...، أو إلى وجهات نظر خاصة يتبناها: "ظنت"– "ادِّعاءها الحزم"– "فهو العدل"... . وهي – كما في خطاب المرأة – تصف أزواجًا متقابلة من الأحوال تشكِّل فعلًا حجاجيًا مقارنًا مركبًا.

أما التوجيهيات فيها، وهي ليست بقليلة، فمنها ما هو إخباري في غرضه غير المباشر، ويوظَّف لأغراض الإخباريات نفسها، كالتقرير في: "لم تنفر؟"– "أليس لأنها تعرف؟"، والنفي في: "ما هو الظلم الذي تشكوه؟". ومنها ما هو تعبيري تعجبي في: "فما لها إذن تلوم الرجل"، ما عدته النظرية الجدلية– التداولية غير أساسي في الحجاج، لكن يمكن القول إنه يسهم أيضًا في عرض رأي المُحاج وموقفه النفسي من وجهات النظر المعروضة.

يأتي في المرتبة الثانية الحجاج السببي، ومنه ما يعتمد على البرهان بالخلف، ليطعن في أقوال المرأة ببيان بطلان أثرها أو تناقضه مع رغباتها:

- "أَلَا فَلْتعلم أن المرأة المترجلة تصول بسلاح غير الذي قلَّدَتْها الطبيعة إياه، فهي لا تصل بهذا السلاح الصناعي إلى غرض من أغراض طبيعتها، وهي خاسرة بما لها من مَزِيَّة على سائر النساء وليست برابحة".

من الحجاج السببي أيضًا ما يأخذ شكل التعليل العلمي الذي ينتقل من النتيجة إلى إثبات السبب، مثل:

- "والمرأة تستكمل نماءها قبل الرجل؛ لأن وظائف بنيتها أقل من وظائف بنيته، فهي تبلغ حدها الأوفى وهو لما يبلغه لتشعب جهات قوته واختلاف خصائص بدنه، وكذلك

يكفي غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات؛ لأنه ينصرف إلى جهة واحدة وهي إشباع الجسم، فتكون أسرع نموًّا وأمنع على الأدواء بنيةً، أما الطفل فلا يكفيه غذاؤه؛ لأن بعضه ينصرف إلى إعداد قواه العقلية والنفسية التي يتفوق بها الرجل على المرأة".

ومنه ما يعتمد على الانتقال من النتيجة إلى السبب، كاتهام المرأة بالإجرام لأن الجرائم تقع لأجلها في المقتبس التالي:

- "ولقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها؛ لأن أكثر الجرائم إنما يقع بسببها ولأجلها، فهي تدرك ما تشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعتها، وقلما تقع مصيبة كارثة إلا كان وراءها وطر لامرأة تقضيه بيد المجرم بعيدة عما يتعرض له من العقاب، وهي وإن كانت أقل من الرجل عيثًا وإجرامًا، فما هي بأقل منه خطايا وآثامًا".

وفي كل هذا توظّف الإخباريات أيضًا لعرض الوقائع التي يُبنى عليها: "تصول"– "لا تصل"– "قلدتها"– "تستكمل نماءها"– "لا يكفيه"– "يقع بسببها"، أو للإخبار عن العواقب كأنها حقيقة معايَنة: "وهي خاسرة"– "ليست برابحة"... . كل هذه الأفعال الكلامية البسيطة تترابط لأداء فعل حجاجي سببي مركب بواسطة روابط مدرجة للنتائج: "لأنَّ"– الفاء، أو بألفاظ لها دلالات سببية معجمية أو ثانوية: ""بسببها"– "لأجلها"– وراءها".

في رد الإنسان على المرأة القليل فقط من حجاج الأعراض، منه ما يقترب من الحجاج بعلاقة الجنس– النوع، فيعتمد على ما يَعُدُّه سمات عامة في النساء، لينتقل منه بحد ذاته إلى حجة نفعية سببية:

- "أيتها المرأة، ارجعي إلى أعماق نفسك، هل تجدين نعمة من النِّعَم تسرك كما يسرك الجمال؟ هل تصبين في نفسك إلى غرض أحب إليك من تملُّك قلب الرجل؟ فبماذا

تملكينه؟ أبالعلم والفلسفة والصناعة؟ لا بل بالطبيعة ... بالجمال سلاحك وعدَّتِك، وكل جمال لا يبلغك هذه الأمنية جمال عقيم لا تنتفعين به ولا تغبطك عليه أترابك".

الأفعال الكلامية المهيمنة على هذا المقتبس هي من التوجيهيات، فمنها توجيهي مقصود بغرض التحدي والمطالبة بتقديم استدلالات على وجهة النظر المخالفة، وهذا في الأمر "ارجعي"، وكذلك في الاستفهام الحقيقي "فبماذا تملكينه؟"، ومنها ما هو إخباري غير مباشر وهو الاستفهام النافي "هل تجدين...؟". لكن ما يؤدي فعل حجاج الأعراض المركب في هذا المقتبس حقيقةً هو ارتباط هذه الأفعال البسيطة بفعل النداء الأول المستند إلى جنس المنادى في "أيتها المرأة".

بقية حجاج الأعراض في خطاب الإنسان للمرأة هو من الأمثلة التابعة في التوظيف لغيرها، من ذلك احتجاجه بالملكة إليزابيث الأولى وتعبيرها عن أسفها لعدم الزواج والإنجاب:

- "يروى أن الملكة إلياصابات لما نُقِل إليها أن ملكة إيقوسيا وضعَتْ ولدًا وسيمًا، قالت لمَن حولها بغمٍّ وكمد لم تحاول إخفاءهما: "ها قد أصبحت ملكة إيقوسيا أمًّا لولد وسيم، وأنا بعدُ ذلك الشيء المقفر العقيم". وما أدراكم ما إلياصابات؟ هي أذكى الملكات في العصور المتأخرة، وأكيدهن وأرشدهن وأعرفهن بالحكم. أنتج رأسها لما عقم بطنها، ونضجت فيها الملكة لما تعطلت فيها المرأة، وحيي طمعها لما مات قلبها، فعاشت وماتت وهي تعزي نفسها بما قالته لمجلس النوَّاب يوم اقترح عليها الزواج: حسبي أن أعيش وأموت فيُكتَب على قبري: "هنا مثوى إلياصابات الملكة البتول"، ولكنكم رأيتم كيف كانت حسرتها على البنين وهي أم السلطة والمال".

كلٌ من الإخباريات والتوجيهيات في هذا المقتبس تدخل ضمن الأفعال المحكية على ألسنة شخصيات المثال، لكنها تؤدي وظيفتها الحجاجية المركبة أيضًا من خلال صلتها بالفعل التقريري المحيل إلى المشاهَدة في "لكنكم رأيتم".

ويمكن عدُّ التعريف بالملكة حجة ضمن حجاج الأعراض، يُشكِّلها الاقتران بين الفعل الإعلاني الشارح للاستعمال اللغوي غير المباشر عبر الاستفهام "ما أدراكم" أي "سأخبركم"، والأفعال الإخبارية المكونة لصيغة التعريف نفسه.

أما **القسم الثاني** من خطاب الإنسان فيخص النقاش الدائر مع بقية الأحياء حول مفاهيم الخير والشر في الحياة، ويدافع فيه الإنسان بشكل أساسي عن أولوية "العقيدة" على غيرها من المبادئ. يقوم حجاج هذا القسم في أكثره على شروح وتفسيرات تأخذ طابعًا علميًا؛ لذا يعتمد فيه بصفة أساسية على حجاج الأعراض القائم على الإحالة إلى الظواهر والحقائق والوقائع، يعضده بحجاج مقارن وقليل من الحجاج السببي.

فمن آليات حجاج الأعراض:

← حجاج الجزء– الكل، حيث ينكر قيمة مصلحة الفرد ما لم ترتبط بالمصلحة العليا للأمة التي ينتمي إليها:

- "إنه حيثما وُجِد شيء يُسمَّى أمة، فلا بد هناك من شيء يُسمَّى مصلحة الأمة، ولعمري كيف تقوم هذه المصلحة إنْ لم تَقُمْ برعاية أبناء الأمة لها؟ وهل يقال إن هذه المصلحة قائمة إن كان أبناء الأمة يعبثون بمصلحتها كلما عنت لهم فائدة قريبة؟ إذن لا علامة على وجود الأمة قَطُّ، وإنما هم آحاد مبعثرون وجسم مفكَّك لا تدب في عروقه روح مؤلفة، ولا تشده بنية موصولة، ولا تعمل أعضاؤه بإرادة واحدة".

في هذا المقتبس يتضافر الاستفهام المجازي الذي يعد فعلًا إخباريًا غير مباشر، مع الإخباريات الصريحة، لأداء فعل حجاجي مركب تشكله بالأساس العلاقات الدلالات الألفاظ القضايا البسيطة كعلاقة الجزء– الكل في: "أبناء الأمة"– "جسم" و"أعضاؤه" و"عروقه"، وعلاقة التضاد في: "أمة" و"آحاد"– "جسم" و"روح"، إلى جانب دلالات الترابط والاتصال في كلمات: "تشده"– "بنية"– "موصولة"، ومقابلاتها في "مبعثرون"– "مفكك".

← وحجة التعريف في:

- "هل علم أحد منكم لنفسه حقًّا موقوفًا عليه متصلًا بكيانه يقول هذا حقي كما يقول هذا رأسي وهذه يدي؟ إنما الحق ما يخلص من هذه المنازعات والأطوار ويحصل من اختلاف نظر الناس إليه وتعدد مناحيه".

أيضًا يتضافر الاستفهام الإخباري ذو غرض النفي مع الإخباريات المباشرة المكونة لجملة التعريف لأداء الفعل الحجاجي التعريفي المركب أو الكلي.

ومن آليات الحجاج المقارن:

← المماثلات المجازية وهي كثيرة، منها قوله:

- "العقيدة هي الإبرة التي تتجه بنا إلى قطب الوجود، هي الهادي إلى نياته ومقاصده، فلا معول في الاهتداء إلى الحق الأعلى الشامل الخالد إلا على العقيدة...

على أنها لا تذنب إلا متى تزعزعت، ولا تنقص إلا إذا تشككت، أما وهي قوية مكينة، فلن تراها إلا وفي جوفها نار تصهر أوشاب الطبائع فتطهرها، كما تصهر نار البركان أوشاب الأرض فتفجرها سيلًا أحمر يتأجَّج نارًا...

فلا تعرف أماء هو أم لهب، وحديد هو أم ذهب؛ لكنه على أيّ صورةٍ قوةٌ جارفةٌ صادعةٌ".

← ومقارنات إبراز التناقض والاختلاف، كالتناقض بين المبادئ والمصالح:

- "وأزيد على ما تقدَّمَ أن مبادئ الحق الخالدة متجدِّدة، وأن المصالح بائدة متقلبة. الحق مرتبط بحياة الإنسانية، والمصلحة مرتبطة بحياة الفرد".

← والاختلاف بين عموم المصلحين والعلماء من طرف، وأصحاب العقائد من طرف، فيكرس الأفضلية لأصحاب العقائد بقوله:

- "إن خلد أولئك أحقابًا خلد هؤلاء أدهارًا وآبادًا، وإنْ ذُكِر أولئك بين الدارسين والقرَّاء ذُكِر هؤلاء في الجهر والخفاء".

جميع الأفعال الإنجازية البسيطة في هذه المقتبسات من الإخباريات، التي تترابط أيضًا من أجل أداء فعل حجاجي مقارن على مستوى النص عبر علاقات التضاد بين ألفاظها في حالات المقارنة (مثل: "متجددة" و"بائدة")، وأدوات التشبيه ووسائله في حالات المماثلة ("العقيدة هي..."– "كما")، أو من خلال أساليب التقييد كالشرط (مثل: "إن خلد أولئك أحقابًا خلد هؤلاء أدهارًا")، مع ربط هذا كله بالأوصاف المحددة لكل زوج من الأزواج ("لا تذنب"– "قوية مكينة"– "قوة جارفة"– "بائدة متقلبة"...).

أما الحجاج السببي فأكثره في هذا القسم من خطاب الإنسان جزئي ولا يرتبط بمقاصده الكلية، ومنه الانتقال من النتيجة إلى البرهنة على السبب في تعليل المكانة التي يتبوءها أصحاب العقائد بين البشر:

- "إن هؤلاء النفر الأعلام يتبوءون بين البشر هذا المحل الأوحد الذي لا يدانيه الملك والفتح والحكمة؛ لأنهم جاءوا إلى البشر بما لم يجئهم بمثله الفاتحون والحكماء، ولأن البشر أحوج إلى العقيدة منهم إلى ثمار الأستاذين والرؤساء".

والأفعال الإنجازية هنا جميعها تقريري، مترابط بواسطة الروابط الحجاجية لتكوين الفعل الحجاجي المركب.

- **المغالطات في خطاب الإنسان:**

بقدر ما كان خطاب الإنسان هو أطول الخطابات وأزخرها بالحجج وأكثرها عمقًا، كان كذلك أغناها بالمغالطات، حتى إن منها ما لا يضاهيه وضوحًا إلا مغالطات الثعلب. فلا يكاد خطاب الإنسان يلتزم بقاعدة واحدة من قواعد المناقشة النقدية.

انتهاك القاعدة الأولى (الحرية):

مرةً أخرى تُنتهَك القاعدة الأولى في مرحلة الحجاج وليس في مرحلة المواجهة؛ إذ ينتهكها الإنسان بوضوح في معرض رده على المرأة، وإن كان أكثر هذا في مفتتح خطابه بما يسمح بالقول إنها مرحلة مواجهة جزئية تخص خطابه من بين جميع خطابات المناقشة. يعبر الإنسان أولًا عن رفضه القاطع لطرح رأي المرأة، فيقول:

- "نصبر على كل حماقة إلا قولها إنها قد أصبحت فجأةً، ولا ندري كيف؟ مثلنا في كل حق وواجب، لها ما لنا وعليها ما علينا، وإنها اليوم لن تحل في الهيئة الاجتماعية محلًّا أوضع من محلنا، أو تتجاوز عن حق نحن نتمتع به دونها؛ هذا لا نطيق الصبر عليه".

وإن كان ينخرط بعدها في مناقشتها بالفعل من باب المسايرة، فهو ينهيها بمصادرة تامة بلا إثبات بقوله:

- "فما نظن عاقلًا يتصور أن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيب لا يستلزم اختلافًا بينهما في الاستعداد، من شأنه أن يفرد كلًا منهما بعمل مستقل في الهيئة الاجتماعية. هذا ما لا يجوز في العقول".

ثانيًا يحاول خطاب الإنسان إلغاء الخصم نفسه/المرأة وانتقاص شراكتها الجادة في المناقشة النقدية عن طريق مغالطة الهجوم الشخصي المتكررة، بالتحقير في:

- "لأننا نعلم أن المرأة شديدة الطيش والغرور، لا تنال القليل حتى تطمع في الكثير، ولو أنها حُرِمت كل شيء لما طمعت في شيء ما، ثم هي لا تجد ما يساعد غرورها حتى تذهب فيه أبعد مذهب، ولا ترى مسألة مهما ضخمت أكبر من أن تخلطها بسفاسفها وألاعيبها".
- "فما كان يدور لي في حسابٍ أنني حين أتقدم للخطابة بينكم أجد نفسي أمام حماقة من حماقات المرأة المعهودة، ولكن ما العمل وهذه الحماقة لا تفارقها في موقف من المواقف؟!".

وبالتشكيك في دوافعها لاتخاذ الرأي في:

- "فلا تصدقوا معشر الأحياء أن المرأة تطلب الحرية لأنها تفهم الحرية، ولكنها تطلبها كما تطلب قرطًا نفيسًا أو ثوبًا من الزي الأخير".

وأما مناقشته آراءَ بقية الأحياء حول القيم والفضائل، فلم يُبْدِ في خطابه الطويل إلغاءً لآراء سابقيه أو انتقاصًا منهم، لكنه ما إن انتهى من صلب خطابه الأساسي وشرع الحاضرون في الاعتراض عليه ومحاولة تطويعه لما يلائم طبيعة كلٍ منهم، حتى كشف الإنسان عن وجهه الوحشي وحاول تهديدهم بالعنف المباشر عامدًا إلى مغالطة التوسل بالقوة أو ما يُعرَف بالاحتكام إلى العصا(٣٢)، فقال:

- "ومضى كلٌّ منهم يعرض اقتراحًا، أو يزيد شرطًا، حتى نفد صبر الإنسان فقال غاضبًا: وهل يقال أيها البهائم إنكم تؤمنون بي وأنتم تقيدونني بهذه الشروط، وتجعلونني آلة بين أيديكم؟ أم حسبتم أنني لا أنال منكم قسرًا ما أعرضه الآن عليكم عرضًا".

انتهاك القاعدة الثانية (عبء الإثبات):

ينتهكها خطاب الإنسان في عدة مواضع من حجاجه – وهو غير مرتبط أيضًا بالمرحلة الافتتاحية –، إذ كثيرًا ما يقدم نتائج متهربًا من عبء إثباتها، والشكل السائد

والأبرز لهذا – كما في خطابات سابقة – هو تحصين النتيجة من النقد بعزوها إلى الطبيعة، والتي ينطلق منها جميع المتحاجين في المناقشة. من ذلك رده أساسَ الاختلاف بين الرجل والمرأة والسمات التي يعدها فطرية فيها إلى "حكم الطبيعة" كما جاء في مقتبسات سابقة. ومثل ذلك قوله:

- "نحن نشنأ المرأة المترجلة لأن الطبيعة علَّمَتْنا أن نشنأها على الكره منا، الطبيعة تبذل لكل جنس ولكل نوع من المزايا ما يحتاج إليه، وتحرمه ما هو في غنى عنه. الطبيعة تقسم هباتها بميزان دقيق لا يختل قيد شعرة، والطبيعة هي التي تحببنا في المرأة الخفرة العروب".

مثل ذلك أيضًا عدُّه مطلبَ المرأة في المساواة انقلابًا على الطبيعة:

- "ولكن المرأة نسيت أن تبيّنَ لنا هل كان الانقلاب الفرنسي انقلابًا اجتماعيًّا أو انقلابًا طبيعيًّا؟ وهل كانت غايته تحويل مواقف الطبقات أو نسخ خواص الأجناس والمخلوقات؟".

كما يقول في عرض مبدئه في أولوية العقيدة على الفكر:

- "إن الفكر يقودنا إلى حيث نعرف، أما العقيدة فتقودنا إلى حيث تعرف الطبيعة، وهي أهدى منا وأبصر بغايتنا؛ كفلتنا ردحًا من الدهر أيامَ كنَّا في غيابات الجهالة لا مرشد لنا إلا ما تأمرنا به أو تنهانا عنه، ولا تزال تكلؤنا وترعانا كلما أضلنا الفكر بنوره الضعيف".

وهذا بغير برهنة على الصلة القائمة بين العقيدة والطبيعة.

انتهاك القاعدة الثالثة (نقطة الانطلاق):

في هجوم خطاب الإنسان على وجهة نظر المرأة مواضع ينتهك القاعدة الثالثة بوضوح، عبر تشويه طرحها والمبالغة في تهويله أو تحريفه؛ من أجل جعله سهل الإبطال،

بما يقترب كثيرًا من المغالطة المنطقية المعروفة باسم "مغالطة رجل القش"، حيث ينقل وجهة النظر من الوسط إلى الأطراف، فيحاجّ ضد قضية أكثر تطرفًا مما طلبته المرأة بالفعل.

أبرز هذه المواضع قوله:

- "لا فرق يا قوم بين أن تقول المرأة: إنها مثل الرجل في كل شيء، أو تقول: إنها أرجح منه وأكمل؛ فلو سلمنا لها أنها قادرة على أن تجمع صفات الأنوثة من لطف ووداعة وعطف وملاحة واستعداد للحمل والحضانة، إلى صفات الرجولة من همة وعزم وحكمة وحزم وأخلاق متماسكة وطبائع نزاعة ومواهب متنوعة، فهل يقدر الرجل على أن يجمع مثلها بين هاتين المزيتين؟ إن كان الجواب "لا"، وهو حتم لا مراء فيه، فما بالها زادها الله تواضعًا تقنع بمساواة الرجل ولا تدَّعِي التفوق عليه؟ وهي امرأة ورجل معًا وهو رجل فقط؟ أليست هي حينئذٍ أجدر بأن تتولى السيادة في ميدان هذا العالم الكبير؟".

انتهاك القاعدة الرابعة (الصلة):

يخرق خطاب الإنسان القاعدة الرابعة بلجوئه إلى الحيل الخطابية، وتحديدًا توظيفه حجاج وجه الذات (الإيتوس)، فهو يوجهه تارة لتأكيد تفوقه عل المرأة ويده العليا فوقها في مثل قوله:

- "ما للمرأة والجرائم وقد أعفاها الرجل من مضانك الكدح، وكفاها مئونة النزول في زحام الحياة".

ويوجهه تارة أخر لتأكيد تفوقه على غيره من الأحياء، ومن ثم انتزاع تسليمهم بقيادته وانصياعهم لرأيه، وذلك في رده على طلب الذئب توضيح مراده، بقوله:

- "بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا إليَّ؛ لأنني – ولا أزدهي عليكم – قد جمعت من دواعي الإيمان ما تفرَّقَ فيكم، وقد زدت عليكم بأشياء لم يتحَلَّ بها أحدٌ منكم".

انتهاك القاعدة الخامسة (المقدمة غير المصرح بها):

ينتهكها خطاب الإنسان أيضًا في مساجلته للمرأة؛ إذ يبالغ في إعادة بناء مقدمة يفترض بنفسه أن المرأة تقصدها ثم يعارضها ويفندها، وهو ما يعده فان إيمرن وغروتندورست نوعًا خاصًا من مغالطة رجل القش.

يظهر هذا في قوله:

- "تذكِّرنا المرأة بالمساواة الحديثة، وقد تعني بها مساواة الانقلاب الفرنسي، فحبًّا وكرامة نحن لا ننسى مبادئ هذا الانقلاب الجليل، ولكن المرأة نسيت أن تبيّنَ لنا هل كان الانقلاب الفرنسي انقلابًا اجتماعيًّا أو انقلابًا طبيعيًّا؟ وهل كانت غايته تحويل مواقف الطبقات أو نسخ خواص الأجناس والمخلوقات؟...

أما أن الانقلاب الفرنسي يبيحها الخروج عن جبلتها، وأن لا تلد، وأن لا تُرضِع أولادها، وأن تهجر المنازل إلى الدواوين؛ فهذا ما لا يفعله هذا الانقلاب، وإنما هو يحتاج إلى انقلاب في جسم الطبيعة يقلب عاليها سافلها".

إذ يفترض أولًا أن المرأة تقصد بالمساواة الحديثة مساواة الانقلاب الفرنسي (الثورة الفرنسية)، وهو ثانيًا يفترض في خطاب المرأة مقدمة ضمنية تفيد بأن الانقلاب الفرنسي انقلاب في الطبيعة البشرية وليس في المجتمع وحسب، فيتخذ من هذه المقدمة – المُفترَضة – مرمًى لسهم التفنيد بتوجيه سؤال ناقد أساسي يطعن في صحتها، متجاهلًا أن المرأة لم تأتِ في خطابها على ذكر الانقلاب الفرنسي قط.

انتهاك القاعدة السادسة (نقطة الانطلاق):

كثيرًا ما يعمد خطاب الإنسان إلى الارتقاء بالقضايا التي يطرحها ارتقاءً زائفًا إلى مستوى نقاط الانطلاق المشتركة دون أن تكون كذلك. وقد يكون هذا بحد ذاته تهربًا من عبء إثباتها في الوقت نفسه.

يقع هذا – وفقًا للنظرية الجدلية– التداولية – بواسطة:

← تغليف القضية بافتراض سابق، ومن أمثلته:

- "وكذلك يكفي غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات؛ لأنه ينصرف إلى جهة واحدة وهي إشباع الجسم، فتكون أسرع نموًّا وأمنع على الأدواء بنيةً، أما الطفل فلا يكفيه غذاؤه؛ لأن بعضه ينصرف إلى إعداد قواه العقلية والنفسية التي يتفوق بها الرجل على المرأة"، بافتراض أن التفوق العقلي والنفسي للرجل قضية مسلم بها.

← إخفاء القضية في مقدمة غير مصرح بها، كما في قوله عن المرأة التي تجهل قدر سلاح الجمال بأنها:

- "لا تستحق حينئذٍ حب الرجل وهيامه"، مضمرًا أنّ حب الرجل جائزة، أو هدف لحياة المرأة.

← المصادرة على المطلوب بجعل المقدمة والنتيجة شيئًا واحدًا في الحقيقة، في:

- "ونحن نعلم علم اليقين أن العقيدة هي قائدة الأمم إلى بلوغ أغراضها، فما من نهضةٍ قَطُّ قامت على غير عقيدة ثابتة فأفلحت".

فكوْن العقيدة تقود الأمم إلى بلوغ أغراضها، وكوْن أي نهضة لا تفلح بغير عقيدة، هما في الحقيقة صورتان لقضية واحدة، ولا تبرهن إحداهما على صحة الأخرى.

- "واعلموا أنه لا يأس من أمة ما بقي فيها استعداد للعقيدة، وأنه لا أمل في أمة قد نضب فيها هذا المعين السماوي مهما أعجبتكم ظواهرها، وغرتكم بوادرها، فإنه لا عمل بغير أمل ولا أمل بغير إيمان".

أيضًا القول بأنه "لا أمل في أمة نضب فيها معين العقيدة" ما هو إلا صورة مجازية للقول بأنه "لا أمل بغير إيمان"، ولا يعلل قول منهما الآخر.

انتهاك القاعدة السابعة (المخطط الحجاجي):

← عن طريق اختيار مخطط غير ملائم، عبر محاولة تأسيس حقيقة باستغلال نوع من السلطة:

من ذلك مغالطة التوسل بالأكثرية:

- "وما دام الرجال كلهم مجمعين على شناءة المرأة المترجلة، أَلَا يشير ذلك إلى أن في باطن هذا الهوى سرًّا فوق إرادة الرجل والمرأة جميعًا؟".

ومنه اختبار وجهة النظر بالرجوع إلى نتائجها المرغوب فيها أو غير المرغوب فيها، أي باللجوء إلى مغالطة التوسل بالنتيجة، كما في قوله عن الأمم المتحاربة في أوروبا:

- "ومع ذلك لم تكف أمة منها عن درء وصمة الظلم عنها، والجهر بأنها مسوقة إلى الحرب على الكره منها، وأنها لم تأت إلا حقًّا، ولم تعمل إلا أمرًا واجبًا! فإن كان الحق وهمًا كما يقول الثعلب وأشياعه، فما حاجة الأمم إلى الاستعانة بالأوهام؟"

فهو يقول: ما دامت الأمم تدعي امتلاك الحق، إذن فالحق ليس وهمًا.

← عن طريق تطبيق غير مناسب للمخطط الحجاجي:

من ذلك مغالطة التعميم المتسرع التي تستنتج قاعدة عامة من أمثلة غير كافية أو غير ممثلة:

- "أي مساواة للرجل تدَّعِيها المرأة وهي إلى اليوم لا تجاريه في صناعة الطهي لو شاركها فيه؟ فما اشتغل رجل وامرأة بهذه الصناعة إلا برعها واستحق أضعاف أجرها".

ومنه إنشاء علاقة سبب ونتيجة غير دقيقة، وهي هنا من نوع مغالطة "حدث بعده إذن حدث بسببه" أو "بِعَقِبِه إذن بسببه"(٣٣)، حين عدَّ العقاد أن وحدة ألمانيا ما هي إلا تأثر بالثورة الفرنسية، في محاولته إثبات قوة تأثير العقائد:

- "ولولا الثورة الفرنسية لما أحست ألمانيا بحاجة إلى الانضمام".

انتهاك القاعدة الثامنة (الصدق):

ويعتمد إدراك انتهاكاتها على إعادة بناء المقدمات الضمنية عبر ما يسميه فان إيمرن "إجراء الاستدلال"، وبهذا الإجراء يتضح في خطاب الإنسان انتهاك واضح للقاعدة، يقوم على الخلط بين الشروط الأساسية لقضية ما وشروطها الكافية، بِعَدِّ شرط كافٍ بمثابة شرط ضروري، من ذلك ما مغالطة "إنكار المقدم"، في مثل قوله:

- "أنت أجمل من الرجل في عين الرجل، أما في عين أختك فأقبح رجل أجمل منك وأحب إليها... فلا تظني أنكِ كنتِ تتحلين بهذه الحلية لو لم يُرِدْها الرجل لكِ، أليس جمالك الأنثوي هو الثوب الذي أعجب الرجل أن يراه على جسدك قد ألبسك إياه فلبسته؟".

فالبناء المنطقي الأول الصحيح لهذه الحجة هو:

إذا كان الرجل يرى جمال المرأة إذن فالمرأة جميلة

الرجل يرى جمال المرأة

المرأة جميلة

أما المغالطة فتقوم على إنكار الشرط ثم المضي في إنكار ما يترتب عليه، في خلط بين معنى "إذا" و"فقط إذا"، فبناؤها هنا:

إذا كان الرجل يرى جمال المرأة إذن فالمرأة جميلة

الرجل لا يرى جمال المرأة

المرأة ليست جميلة

وكان من الممكن أن تصح هذه الحجة فقط إذا كانت الصيغة المنطقية للمقدمة الأولى " إذا، وفقط إذا، كان الرجل يرى جمال المرأة إذن فالمرأة جميلة".

انتهاك القاعدة العاشرة (الاستعمال اللغوي):

ليس مجال هذا البحث الغموض العام الذي قد يُلحَظ في أسلوب العقاد، وإنما ما قصد منه أن يكون غموضًا مؤثرًا في العملية الحجاجية، وهو الغموض الذي أشار فان إيمرن وغروتندورست إلى أنه يخلق اتفاقًا زائفًا أو خلافًا زائفًا.

لهذا النوع موضع جلي في آخر خطاب الإنسان، كاد أن يخلق بالفعل اتفاقًا زائفًا لولا أن وجه الذئب فعلًا استفهاميًا توجيهيًا يطلب به بيانًا تصريحيًا للتوضيح. ففي نهاية خطاب الإنسان يقول:

- "وإذا كان القرد يقول لكم: عليكم بالحق، فأنا أقول لكم: عليكم بالاعتقاد بالحق؛ لأن أنفع ما في الحق الغيرة عليه والسعي إليه".

ثم يقول:

- "هل علم أحد منكم لنفسه حقًّا موقوفًا عليه متصلًا بكيانه يقول هذا حقي كما يقول هذا رأسي وهذه يدي؟ إنما الحق ما يخلص من هذه المنازعات والأطوار ويحصل من اختلاف نظر الناس إليه وتعدد مناحيه، فلا حق إلا بالنزاع على الحق، وزوال النزاع موت، وزوال الحق باطل ومحال، والحق يكون معكم مرة وعليكم مرة، فإذا أردتم أن تعرفوا في أي جانب هو فانظروا إلى جانب العقيدة، فثَمَّ الحق الأكبر المنشود".

وهنا يتدخل الذئب:

- "وما مرادك بهذا الكلام أيها الإنسان؟ أتريد أن يصر كلٌّ منا على عادته ويؤمن بما هو في صدده؟ إنْ كان هذا مرادك، فهذه يدي فإني أول المشايعين لك".

في فخ اتفاق موهم حول قضية غير مقصودة، ليرد الإنسان بدوره:

- "لا، بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا إليَّ...".

ويعود الخلاف من جديد، ثم يتفاقم؛ إذ يتضح أن الإنسان إنما قصد بدعوته إلى "العقيدة" والتمسك بـ"الحق" ما تحقق له هو من إيمان، وما جمعه هو من علم بأسباب المعيشة بوصفه الدرجة العليا في سلم النشوء والارتقاء، وهو المدلول الذي كان يضمره طول الوقت بغير تحديد، مستفيدًا من كونها ألفاظًا وجدانية تحتمل التأويلات، ولا مدلولات حسية لها كما أشار بنفسه.

خطاب الطبيعة:

- **المخططات الحجاجية والأفعال الكلامية في خطاب الطبيعة:**

وهو خطاب قصير اعتمد حجاجه الخاطف على توظيف سريع للمخططات الحجاجية الثلاثة؛ حيث جمعت بين حجة المماثلة عبر التشبيه المجازي من الحجاج المقارن مع حجاج سببي قائم على الانتقال من السبب إلى النتيجة والبرهان بالخلف، في محاولة نيل اطمئنان الحياة لحكمها:

- "اعلمي يا حياة أنك لا تخافين الموت إلا لأنك تمشين في أنفاقه معصوبة العينين، ولو كان لك اطمئنان الوليدة إلى أمها لتأكدت أنك ناجية ما دمت في يدي".
- "تشفقين يا حياة أن يلم الموت بمضغة ترمزين فيها لمحة من الوقت، ولو أنها نقطة من تلك النقاط الزلالية التي لا يميزها الناظر من نقاط الماء، وجهلت أننا لو جاريناكِ على هذا الإشفاق لكانت تلك النقاط عليا ما تسنمته من درجات التكوين، ولخسرت الوجود برمته وأنت تتمسكين بالوجود".

يتشكَّل فعل الحجاج السببي في هذين المقتبسين من ترابط الأفعال الإخبارية البسيطة بواسطة الروابط المدرجة للحجج (مثل: "تشفقين... وجهلتِ...")، والروابط المدرجة للنتائج (مثل: "لأنكِ تمشين...")، وأساليب الشرط ("لو كان لكِ... لتأكدتِ..."- "لو جاريناكِ.. لخسرتِ...").

أما الفعل التوجيهي المتمثل في الأمر "اعلمي" فغرضه التماس الفعل التأثيري الأمثل، بل فرضه بالأصح؛ بحكم السلطة التي تملكها الطبيعة.

وأما حجاج الأعراض فيمكن عدُّ تجربة الموت التي فرضتها الطبيعة على جميع الأحياء مثالًا واقعيًا من آلياته، ففي آخر خطابها:

- "ثم نادت: يا موت، فانطلق من يسارها شبح بغيض شملتنا رؤيته بقشعريرة باردة، وامتلأت الحياة ذعرًا وهي تصارع ذلك الشبح ويصارعها، وما استطال هذا الصراع حتى غشيتنا الغاشية مدة لا ندري ما مقدارها، ثم صاحت بنا الطبيعة فانتبهنا، فإذا نحن خلق آخَر، وإذا الحياة أمامنا أبهى مما كانت وأعدل قوامًا، وأحب منظرًا، وأذكى عرفًا، وأنبل طلعة، ثم قالت الطبيعة تخاطبنا: أَمَا وقد شاهدتم أيها الملأ كيف أن الموت ينقلكم من طور إلى طور أكمل، ومن هيئة إلى هيئة أجمل، فاعلموا – كمَّلكم الله – أن الكمال غايتكم في الحياة وليس البقاء، فلا تخافوا الموت بل خافوا النقص؛ فهو أعدى لكم من الموت... ولا تسمعوا صوت الحياة بل اسمعوا صوت الطبيعة؛ فهي أبرُّ بكم من الحياة".

يتحقق الحجاج في هذا المقتبس من المعاينة الحية في ربطها بالفعل الإخباري المقرر لحقيقتها "شاهدتم"، مع الإخباريات التي تعزو أوصاف الكمال والجمال إلى فعل الموت.

وكذلك يهدف الفعل التوجيهي المتكرر "اسمعوا صوت الطبيعة" إلى فرض الفعل التأثيري الأمثل، وخطاب الطبيعة هو الوحيد الذي حقق فعله التأثيري الأمثل المنشود، فامتثل له جميع الأحياء كما يفسر كلٌ منهم "صوت الطبيعة".

- **المغالطات في خطاب الطبيعة:**

قد لا يجوز القول بأن الطبيعة ترتكب المغالطات في خطابها، بل الأَوْلى القول بأن خطابها بحد ذاته تعبير عن مغالطات كونية معقدة يصوغها العقاد، وضعها أولًا على ألسنة الأحياء كلٍ على حدة وفقًا لما يرمز إليه، ثم ضمها في كيان اعتباري واحد يرمز به إلى التناقض في تلك السلطة التي يخضع لها الجميع ولا يخضع لها أحد في آن واحد.

إذن يُعَدّ خطاب الطبيعة انتهاكًا كاملًا للقاعدتين الأولى والثانية من قواعد المناقشة، فهو يفرض حكمه بما يسخره من قوى الإحياء والموت.

كما يظهر فيه انتهاك للقاعدة الرابعة، حيث تقرر الطبيعة استعلاء حكمها فوق الحياة والأحياء بفعل ما تملكه من قوة ومن خبرة؛ فتستخدِم حجاج وجه الذات بدلًا من البرهنة العقلية على صحة أحكامها، تقول في خطابها للحياة:

- "ولا أذكركِ إلا بأنكِ وليدتي وأنني أنا أمك. أعلم من شأنك ما لا تعلمين، وقد كنتُ ولم تكوني، وأكون حيث لا تكونين، وأنا أحرص عليكِ منكِ، وإنْ زعمتِ أنكِ أخبر بنفسكِ، فما من صلبك ولدت أنا الوالدة، وما من جسدكِ تأكلين، ولكني أنا المأكولة والآكلة. أنا التي أصوغ من الصعيد الخانق والماء الجاري، ومن الهواء الخافق والضياء الساري، عجينًا منه تنشئين...

فمن جسدي كيانك، ومن جسدي قوامك، وإلى جسدي مرجعك ومآبك، فكيف إذن تختارين لنفسك ما لست أختاره لكِ، ومَن لكِ بمحاربة الموت وهو قضاء حتم عليك؟".

يمكن القول إن في خطاب الطبيعة انتهاكًا أيضًا للقاعدة العاشرة؛ حيث يستبين فيه أنه لا اتفاق واضحًا بين المجتمعين، حول جوانب مفهوم "الطبيعة" بحد ذاته – كما لم يكن اتفاقٌ على مفهوم "الحياة" –؛ بدليل أن الاستجابة لصوت الطبيعة إنما فهمها الجميع على أنها دعوة للاقتتال بما أخرج المناقشة النقدية عن مسار البحث عن حل.

رابعًا: مرحلة الاختتام Concluding stage:

من الواضح أن المناقشة النقدية لم تكتمل اكتمالًا حقيقيًا من وجهة النظر التداولية– الجدلية، لا في صورتها الكلية المرتبطة بجميع الخطابات المشاركة، ولا في أي صورة جزئية تتعلق بنقطة خلافية محددة؛ إذ لم يعترف أي طرف لطرف آخر بأنه دافع بشكل جيد عن وجهة نظره، ولم يسحب أي طرف وجهة نظره أو يتراجع عن التشكيك في وجهات النظر المخالف.

على العكس من ذلك يُتبِع العقاد كل خطاب في المناقشة بتعليق يصف فيه حالة الرفض الظاهر أو الخفي التي تعم الحاضرين، فيما يمكن عده اختتامًا خاصًا بكل شوط حجاجي.

وهكذا وصولًا إلى العراك الذي انتهى إليه خطاب الإنسان، ثم الموت الذي استدعته الطبيعة لفرض قوانينها الخاصة، وبعده العراك الجديد الذي أراد به العقاد الوصول إلى النتيجة الصراعية نفسها مهما تعدد فرص الأحياء في الحياة.

والعبارة الأساسية التي تمثل هذه المرحلة الختامية الكلية للنقاش هي الدعوة التي أطلقتها الطبيعة مضمنة قانونها في التلازم بين الحياة والموت، والتي رددها جميع الأحياء وراءها في تصارعهم: "اسمعوا صوت الطبيعة! اسمعوا صوت الطبيعة!".

يمكن القول إذن إن جميع المشاركين قد انتهكوا القاعدة التاسعة الخاصة بإغلاق النقاش.

خاتمة:

يبقى في كتاب "مجمع الأحياء" مزيدٌ مما يستحق التحليل والتعليق، ولا يدعي هذا البحث سوى أنه يلقي الضوء على جانب منه رآه ذا أهمية تفوق غيره من الجوانب. أما نتائج البحث فيمكن إجمالها تحت عنوانَيْن، أحدهما يخص النظرية التي اتخذها إطارًا لعمله، والثاني يخص الكتاب الذي شكَّل مادة درسه.

عن نقد النظرية الجدلية– التداولية:

١. يُقِرُّ فان إيمرن وغروتندورست بأن المراحل الأربعة للمناقشة النقدية قد لا يمر المتحاجون بها جميعًا بوضوح وترتيب نظرًا لتعقيد الخطاب الحجاجي الواقعي. وما أضافه التحليل في هذا البحث أنه يمكن وجود إطار كلي للمناقشة، يمر بمراحل كلية عامة للمواجهة والافتتاح والحجاج والاختتام، ويضم بداخله مقاطع جزئية أو أشواطًا حجاجية ثانوية قد يمر كلٌ منها بمراحله الخاصة.

٢. هذا التداخل بين المراحل ينتج عنه أحيانًا اختلاط في قواعد المناقشة التي تحكم كل مرحلة، ومن ثم فإن القاعدة الأولى التي عدَّتها النظرية خاصة بمرحلة المواجهة، والقاعدة الثانية التي عدَّتها خاصة بمرحلة الافتتاح، قد تُنتَهكان فعليًا في ثنايا أشواط المرحلة الحجاجية.

٣. توزيع الأفعال الكلامية الإنجازية البسيطة على مراحل المناقشة، ووظيفة كلٍ منها، ليسا في الحقيقة من الأمور الملزمة؛ فبعض الأفعال التي نصَّت النظرية على ورودها في مرحلة معينة أو حددت لها وظائف حجاجية معينة، كان لها في المناقشة الفعلية توزيعات ووظائف أخرى. التعبيريات مثلًا ليس لها – بحسب النظرية – دور

حجاجي، لكنها تسهم في الواقع في تحديد الموقف النفسي للمحاج نفسه، ويُعَوَّل عليها بشكل واضح حين يتحول الحجاج من النمط العقلي إلى الحجاج العاطفي فيُلجَأ فيه إلى مغالطة التوسل بالشفقة.

كذلك التوجيهيات حددت لها النظرية وظيفتين أساسيتين في مرحلة الحجاج، هما المطالبة بتقديم استدلال، والمطالبة بتقديم فعلٍ إعلاني شارح. لكن التحليل أظهر بعض المتحاجين يورِدونها لمهمة حجاجية أخرى هي الالتماس الصريح لتحقق الفعل التأثيري أو فرضه بحسب السلطة التي يتمتع بها كل مُحاج.

عن الحجاج في كتاب "مجمع الأحياء":

١. جميع الكيانات التي أنطقها العقاد في مجمعه إنما هي دوال يرمز باختلاف طبائعها إلى الأفكار المتنازعة في الحياة من حوله؛ فرمز باليمامة إلى السلام والرحمة، وبالثعلب إلى المبدأ النفعي، وبالقرد إلى المذهب التطوري، وبالأسد إلى القوة والسيادة، وبالإنسان إلى العقيدة. وأما المرأة فهي المرأة كما يراها العقاد في جل كتاباته.

٢. لم يسلم أيٌّ من المتحدثين في المجمع من الانزلاق إلى مغالطات يخرقون بها قاعدة أو أخرى من قواعد المناقشة، باستثناء وحيد هو الحياة نفسها، الداعية للاجتماع. فالعقاد لا ينسِب صدقًا تامًا في النوايا أو حرصًا على حل يصب في مصلحة الجميع إلى كيان سواها، وهو ما أفضى إلى فشل إيجاد حل للخلاف وعدم اكتمال المرحلة الاختتامية للمناقشة.

٣. يرمز العقاد بهذا الفشل إلى حتمية الصراع وأبديته بين الكائنات والمبادئ بعضها وبعض، وإلى حقيقة اجتماع المتناقضات في الكون... "الحياة" و"الموت"، "الخير" و"الشر"، "الحق ونواميس الطبيعة".

٤. عزا العقاد إلى الكائنات التي تشكل دواله جميعًا مغالطةً أساسية تمثلت في محاولة كلٍ منهم تحصين وجهة نظره بنسبتها إلى حكم الطبيعة، وحتى اللذين الذين عبرا عن صَهر الطبائع وارتقائها – وهما الإنسان والقرد – إنما كانا يعنيان سيرورة هذا الصهر والارتقاء في اتجاه يخدم رؤاهما وحدهما.

٥. جميع المتحاجين وظفوا المخططات الحجاجية الأساسية الثلاثة: حجاج الأعراض، والحجاج المقارن، والحجاج السببي. لكن بعض القضايا يفرض محتواها غلبة نمط حجاجي على غيره، مثلًا دفاع الثعلب عن المبدأ النفعي استتبع غلبة آليات الحجاج السببي على خطابه، وبخاصة الحجة النفعية. كذلك قضية المساواة بين الرجل المرأة استدعت اعتمادًا أكبر على آليات الحجاج المقارن عند مناقشتها فيما بينهما، وبخاصة الحجة القائمة على العلاقة التبادلية وقاعدة العدل.

٦. قدم البحث تطبيقًا لكيفية تضافر الأفعال الإنجازية البسيطة الحاضرة على مستوى الجملة في كتاب "مجمع الأحياء"، لتشكيل الفعل الإنجازي الحجاجي المركب الحاضر على مستوى النص. هذا التضافر يسهم فيه كلٌ من: الدلالات المعجمية للألفاظ، والعلاقات الدلالية فيما بينها، والعوامل والروابط الحجاجية، والأساليب النحوية والبلاغية المختلفة.

هوامش البحث

١- عبد المنعم شميس: كليلة ودمنة المصرية، مجلة "الجديد"، ع٢٥، ١٥ يناير ١٩٧٣، صـ١٢.

٢- فاضل خلف: كتاب "مجمع الأحياء" للعقاد، مجلة "الدوحة"، ع٨٩، مايو ١٩٨٣، صـ١٢٠.

٣- أحمد عبد الحميد عمر: تحليل المناورة الاستراتيجية في الخطاب الحجاجي، الخطاب، الجزائر، مجـ١٤، ع٢، ٢٠١٩/٦/١٩، صـ١٨١، ١٨٢.

٤- أحمد عبد الحميد عمر: دراسة الخطاب الحجاجي من منظور الجدل التداولي، عالم الفكر، الكويت، ع١٨٢، إبريل- يونيو ٢٠٢٠، صـ٤٢.

٥- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- بنغازي، ط١، ٢٠١٦، صـ٧٩.

6- Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "Fallacies in pragma-dialectical perspective." *Argumentation* 1, no. 3 (1987), pp.183, 184.

٧- الشرح التفصيلي لهذه القواعد في:

Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "Fallacies in pragma-dialectical perspective.", pp. 284- 293.

8- Eemeren, Frans H. van, and Bart Garssen. "Argument schemes: Extending the pragma-dialectical approach." In *From Argument Schemes to Argumentative Relations in the Wild*, Springer, 2020, pp.15, 19.

9- Ibid, pp. 15, 19.

10- Ibid, pp. 15, 19.

11- Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "The speech acts of arguing and convincing in externalized discussions." *Journal of pragmatics* 6, no. 1 (1982), pp. 3- 7.

١٢- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ٨٢، ٨٨.

وراجع أيضًا:

van Eemeren, Frans H., Bart Garssen, Erik CW Krabbe, A. Francisca Snoeck Henkemans, Bart Verheij, and Jean HM Wagemans. "Handbook of Argumentation Theory.",Springer Reference, 2014, pp.531- 533.

١٣- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ٧٩، ٨٠.

وراجع أيضًا:

van Eemeren, Frans H., Bart Garssen, Erik CW Krabbe, A. Francisca Snoeck Henkemans, Bart Verheij, and Jean HM Wagemans. "Handbook of Argumentation Theory.", p.529.

١٤- عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد- المجلد الثاني عشر: العقائد والمذاهب (مجمع الأحياء- تصدير الطبعة الثالثة ١٩٤٤)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، صـ١١.

١٥- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ٨٠.

وراجع أيضًا:

van Eemeren, Frans H., Bart Garssen, Erik CW Krabbe, A. Francisca Snoeck Henkemans, Bart Verheij, and Jean HM Wagemans. "Handbook of Argumentation Theory.", pp.529, 530.

١٦- اليمامة dove في الثقافة الأوروبية هي التي تُستَخدَم رمزًا للسلام وليس الحمامة pigeon.

Hall, James. *Illustrated dictionary of symbols in Eastern and Western art*. Routledge, 2018, pp. 19, 20.

وهذا هو استعمال العقاد هنا، بخلاف الشائع في الأدبيات العربية المعتمدة على النص العربي القديم لقصة الطوفان في العهد القديم (التكوين ٨: ٨-١١).

ربما يرجع الاختلاف في الدال إلى اختلاف ترجمات قصص الحضارات القديمة بين اللغات، أو لعدم التمييز الدقيق بين جنسَي الحيوانين المنتميين إلى فصيلة واحدة (الحماميات).

١٧- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ١٢٦.

١٨- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ٨١.

وراجع أيضًا:

van Eemeren, Frans H., Bart Garssen, Erik CW Krabbe, A. Francisca Snoeck Henkemans, Bart Verheij, and Jean HM Wagemans. "Handbook of Argumentation Theory.", pp. 530.

19- Plantin, Christian. *Dictionary of argumentation: an introduction to argumentation studies*. College Publications, 2018, pp. 27- 29.

٢٠- فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، صـ٨١.

21 - Plantin, Christian. *Dictionary of argumentation: an introduction to argumentation studies*, pp. 334, 335.

22- Plantin, Christian. *Dictionary of argumentation: an introduction to argumentation studies*,p. 447.

23- Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "The speech acts of arguing and convincing in externalized discussions, pp. 14- 24.

24- Biedermann, Hans, and James Hulbert. *Dictionary of symbolism: Cultural icons and the meanings behind them*. Meridian, 1992, pp. 143, 144.

25- Plantin, Christian. *Dictionary of argumentation: an introduction to argumentation studies*, pp. 218, 219.

٢٦- راجع عن هذه المغالطة: عادل مصطفى: المغالطات المنطقية - طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصوري)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، صـ٢٥- ٣٠.

٢٧- عادل مصطفى: المغالطات المنطقية، صـ٥٢- ٥٨.

٢٨- عادل مصطفى: المغالطات المنطقية، صـ٢٢٣- ٢٢٦.

٢٩- وهذا النص تلميح مفهوم إلى القيمة الرمزية للقرد بوصفه ممثلًا لمبدأ الارتقاء.

٣٠- عن رمزية الأسد وصفاته راجع:

Biedermann, Hans, and James Hulbert. *Dictionary of symbolism: Cultural icons and the meanings behind them*, pp. 209- 211.

٣١- تأثُّر العقاد بالثقافات غير العربية واضح في عموم هذا الكتاب.

٣٢- عادل مصطفى: المغالطات المنطقية، صـ١١١- ١١٤.

٣٣ - عادل مصطفى: المغالطات المنطقية، صـ١٤١- ١٤٦.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

١. أحمد عبد الحميد عمر: تحليل المناورة الاستراتيجية في الخطاب الحجاجي، الخطاب، الجزائر، مج١٤، ع٢، ٢٠١٩/٦/١٩.

٢. أحمد عبد الحميد عمر: دراسة الخطاب الحجاجي من منظور الجدل التداولي، عالم الفكر، الكويت، ع١٨٢، أبريل- يونيو ٢٠٢٠.

٣. عادل مصطفى: المغالطات المنطقية – طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصوري)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

٤. عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد- المجلد الثاني عشر: العقائد والمذاهب (مجمع الأحياء- تصدير الطبعة الثالثة ١٩٤٤)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٩.

٥. عبد المنعم شميس: كليلة ودمنة المصرية، مجلة "الجديد"، ع٢٥، ١٥ يناير ١٩٧٣.

٦. العهد القديم (سفر التكوين).

٧. فاضل خلف: كتاب "مجمع الأحياء" للعقاد، مجلة "الدوحة"، ع٨٩، مايو ١٩٨٣.

٨. فان إيمرن، فرانز وروب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية- الجدلية، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- بنغازي، ط١، ٢٠١٦.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1. Biedermann, Hans, and James Hulbert. *Dictionary of symbolism: Cultural icons and the meanings behind them*. Meridian, 1992.
2. Hall, James. *Illustrated dictionary of symbols in Eastern and Western art*. Routledge, 2018.

3. Plantin, Christian. *Dictionary of argumentation: an introduction to argumentation studies*. College Publications, 2018.
4. Van Eemeren, Frans H., and Bart Garssen. "Argument schemes: Extending the pragma-dialectical approach." In *From Argument Schemes to Argumentative Relations in the Wild*, Springer, 2020.
5. Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "Fallacies in pragma-dialectical perspective." *Argumentation* 1, no. 3 (1987).
6. Van Eemeren, Frans H., and Rob Grootendorst. "The speech acts of arguing and convincing in externalized discussions." *Journal of pragmatics* 6, no. 1 (1982).
7. Van Eemeren, Frans H., Bart Garssen, Erik CW Krabbe, A. Francisca Snoeck Henkemans, Bart Verheij, and Jean HM Wagemans. "Handbook of Argumentation Theory.",Springer Reference, 2014.

Argumentative Mechanisms in 'Majmaʿul- Aḥyāʾi' of Al ʿAqqād: a pragma-dialectical study

Abstract:

This study attempts to explore the argumentative mechanisms that ʿAbbās Maḥmūd Al ʿAqqād employs in his book "Majmaʿul-Aḥyāa" and uttered by its characters, who express the conflict of passions, values and contradictory concepts about life.

The study makes use of the procedural tools of the pragma-dialectical theory, which has been established by Frans H. van Eemeren and Rob Grootendorst in the eighties of the twentieth century. The pragma-dialectical theory studies the argumentative practices in their context, so they combined the descriptive pragmatic component with the normative logical component. It also studies the simple and complex illocutionary acts in relation to their persuasive function, and studies argumentative schemes and fallacies in light of the standards of adherence to or violation of the rules of discussion.

The study begins with an explanation of these tools in its theoretical section, before applying them to the text of the book in the practical section.

Keywords: ʿAbbās Maḥmūd Al ʿAqqād, Majmaʿul- Aḥyāʾi, Pragmatics, Argumentation, Pragma-Dialectical Theory.